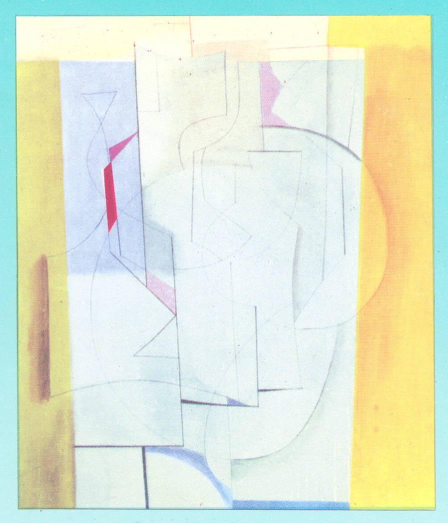
عزيز نيسين



غازا الشرف

قصص عالمية

ترجمة

أحمد الإبراهيم

الإشراف الفنّي زهير الحمو

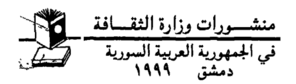
عزيز نيسين

غاز الشَّرَف

قِصَص عَالَمِيَّة

ترجمة

أحمد الإبراهيم



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

AZIZ NESIN

NAMUS GAZI

غاز الشرف: قصص عالمية = NAMUS GAZI/ عزيز نيسين؛ ترجمة أحمد الإبراهيم. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩. - ١٧٦ ص؛ ٢٤سم. -

١ - ٨٩٤ ن ي س غ ٢- العنـوان ٣- العنـوان المـوازي
٤ - نيسين ٥- الإبراهيم

مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني: ع - ٢٤٥٥/ ١٢/ ١٩٩٩

سيمفونية رباط الحذاء

كان المتهم الذي يقطن في الزنزانة رقم أربعة قصيراً ونحيلاً، وكان مكوماً في الزاوية مثل كيس قمح فارغ، يعاني من الذبول والخدر والبرد وذلك نتيجة للوحدة التي يعاني منها، فقد أثرت فيه أكثر من الجوع والبردوالسجن حيث أتم يومه الثالث هنا.

الزنزانة رقم أربعة عرضها متران وطولها ثلاثة أمتار وارتفاعها متران ونصف أي أن حجمها خمسة عشر متراً مكعباً.

الزنزانة رقم أربعة ليس لها نافذة.

الزنزانة رقم أربعة لايوجد فيها ضوء.

الزنزانة رقم أربعة عندما يدخل إليها المتهم يأخذون منه ربطة عنقه وزنار وشيال بنطاله بالإضافة لساعة يده وميدالية المفاتيح. كما أنهم يأخذون منه رباط حذائه، وذلك كي لايستعمل كل هذه الأشياء إذا مافكر بالإنتحار.

ويأخذون منه أيضاً دبوس قميصه وقلمه وذلك كي لايضعهما في مكان ما من أجل قتل نفسه.

إنهم يريدون المحافظة على حياة المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة، ولأن ضوء الشمس لايدخل إلى الزنزانة رقم أربعة فإن المتهم قد خلط ليله بنهاره ولم يعد يميّز بينهما خلال الأيام الثلاثة التي أمضاها هنا.

المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة لم يعد يعرف كم الساعة، فقد أتم يومه الثالث معتقداً انه قد مضى على إقامته هنا عشرة أوخمسة عشر يوما.

المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة تكوم على نفسه وبدت علامات الذبول واضحة عليه.

يوجد في أعلى باب الزنزانة رقم أربعة كوة صغيرة طولها شبرٌ وعرضها شبرٌ وكانت هذه الكوة مغلقة بمزلاج خشبي، وكان هذا المزلاج يغطي الكوة بشكل تام.

كان حارس الزنزانة رقم أربعة يسحب غطاء الكوة الخشبي ليراقب المتهم ومن ثم يسحبه من جديد فتنغلق الكوة.

كان المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة، القصير النحيل الذي يعاني من البرد والذبول والخدر يفكر بقطته التي تعاني الجوع بسبب غيابه عن البيت، وأثناء تفكيره (شاط) يفتح المزلاج الخشبي و(شاط) يغلق من جديد.

كان المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة يفكر بيباس الأزهار التي في الأصيص لأنهم منعوا عنه الماء، يُفتح الغطاء (شاط).

كان المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة يحصر تفكيره، ولسبب ما، في باريس التي لم يرها ابداً شاط.. قطة.. زهرة.. باريس.. شاط.. زهرة.. شاط.. قطة.. باريس.. شاط.. يا.. قـ.. شاط.. طة.. رة.. شاط.. ريس.. شاط.. باط.........

كانت الأفكار تكبر وتتضخم في دماغ المتهم القاطن في الزنزانة رقم أربعة، تتضخم الأصوات في أذنه لدرجة أن أقل حركة يسمعها كانت تبدو كصوت الضجيج الذي يسببه سقوط مبنى ضخم نتيجة زلزالٍ ما. شط... وُصِلَ مفتاح الكهرباء الذي في الخارج.

أضيئت لمبة الزنزانة رقم أربعة ذات العشر شمعات، ولأن الغبار قد غطى اللمبة بشكل كامل فقد بدا ضوء اللمبة أقل من عشر شمعات بكثير.

فتح باب الزنزانة رقم أربعة وكان الداخل شرطياً مدنياً، وأغلق الباب من جديد.

نهض المتهم من الزاوية التي أصيب بالخدر والذبول فيها، كان الشرطي المدني الذي يشبك يديه خلف ظهره رجلاً بديناً.

مسابقات السعال:

تبادلا النظرات فيما بينهما لفترة وجيزة، ثم سعل المتهم فسعل الشرطي، سعل المتهم من جديد ولكن بصوت مخنوق فجاوبه الشرطي بسعال أقوى، سعل المتهم بهدوء فجاوبه الشرطي بسعال محدثاً ضجةً قويةً، وكلما سعل المتهم كان الشرطي يرفع صوت سعاله أكثر واستمر الشرطي بسعاله حتى صمت المتهم.

رقصة بالية ثنائية:

تبادلا النظرات، نظر الشرطي بحدة لدرجة أن المتهم خاف من النظر اليه فحنى رأسه نحو الأسفل دار الشرطي حول المتهم عدة دورات ثم رمقه بنظراته من الأعلى الى الأسفل ثم من الأسفل إلى الأعلى وبعدئذ خاطبه بصوت معتدلٍ قائلاً:

- مرحبا.

رد المتهم بخوف:

- اهلاً.

سأله الشرطي بصوتٍ خجول:

- انتَ، مااسمُكْ؟

- موتيرا..

- ماذا؟

ثم جمع الشرطي قواه من جديد قائلاً:

- ها !!! ! ! . .

- موتيرا .

تصامتا فترة ثم ضغط الشرطي يديه المتشابكتين خلف ظهره، وبعد أن ابتعد خطوتين عن المتهم نظر إليه من الأعلى وخاطبه بلهجة جميلة :

- تخرجتُ حديثاً من مدرسةِ الشرطةِ، أنا شرطيٌ منذ اسبوع فقط . . أنتم أول عمل هام يوكل الي القيام بتحقيقهَ .

بدا سلوكه كمن يفضي بهمومه لأحد أصدقائه :

- سمعت أنك لم تجب على أيٍّ سوالٍ حتى الآن، هكذا قالوا لي، قالوا لي : يجب أن تجبره على الإعتراف بكلِ شيءْ، هكذا قالوا لي، ستحدثني عن كل شيء .

صمت كلاهما .

- يجب أن تعترف بكلِّ شيء، هل تفهمني ياسيد . . . . ماذا كان اسمك؟

- موتيرا . .

- يجب أن تتكلم ياسيد موتيرا، يجب أن توضح لي كل شيء، لأنها مهمتي الأولى التي وُكِّلتُ بها إنه أول عملٍ هام لي، يجب أن لاأفشل، . . أنت تفهمني اليس كذلك . . ؟

صمت لبرهة

* * *

أرجو ألا تصمتوا . . . افهموني . . . افهموا . . . وإلا . . . كيف سأوضح ذلك . . . سأكون مجبراً على إقحامك على التكلم ، ولكنني لاأريد أن أفعل شيئاً كهذا . . . هل استطعت أن أوضح مقصدي؟ . . .

صمت لبرهة ثم قال :

- لاتجبرني على عمل لستُ راضياً عنه ياسيد . . . ماذا؟

- موتيرا . . .

- ياسيد موتيرا . . . أرجو ان تكونوا منهمين . . لطفاً تكلموا . . . انا لاأعرفكم أبداً، ولاأعرف من تكونوا، إني اراكم لأول مره، وأنتم أيضاً تروني لأول مرة، لم نتعارف وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يضرب المرء رجلاً يراه لأول مرة، لاتظنوا أنَ الأمر سهل ولكنهم . . . قالوا لي ستضربه، اذا لم يتكلم ويعترف بكل شيء، هكذا أعطوني التعليمات.

انسحب رجل الشرطة المدنية خطوة إلى الوراء، فاقترب منه المتهم خطوة واحدة.

- ثم . . . أتعلم أني لم أضرب أيَّ رجلٍ في حياتي، ولاأستطيع أن أفعل ذلك . . . لاتنظروا إلى طولي وعرضي وبنيتي هذه، فأنا أملك قلباً ضعيفاً، إن طبعي رقيقٌ للغاية، لم أضرب أحداً في حياتي، حتى أطفالي . انسحب خطوة أخرى، فاقترب المتهم منه خطوة واحدة:

- ولكنكم تسيؤون التصرف معي بصمتكم وعدم اعترافكم، ولسوف يطردونني من عملي اذا لم أُجبركم على التكلم، علماً بأني استلمت وظيفتي حديثاً . أقول لكم سيطردوني من عملي ياسيد . . . ماذا؟

- موتيرا . . .

- سيطردونني ياسيد موتيرا . . . وسأصبح عاطلاً عن العمل من جديد.

أراد رجل الشرطة أن ينسحب خطوة أخرى الى الوراء لكنه اصطدم بالجدار، اذ لم يبق مكان في الزنزانة ليرجع إليه مما ادى الى التصاق المتهم به بشكل تام.

- هل يستريح ضميرك اذا ماجعلتني عاطلاً عن العمل وعندي طفلان ياسيد . . . ماذا؟

- موتيرا . .

- ياسيد موتيرا عندي طفلان.

استند رجل الشرطة المنهك على الجدار:

– ياله من عمل صعب . . . ياإلهي . . . ياله من عمل صعب أن تضرب إنسانا لاتعرفه ولم يجرِ بينك وبينه أي أخذ وردّ .

ثم جلس القرفصاء في أسفل الجدار الذي استند إليه :

– حتى لوكنت أعرفه ، لاأستطيع أن أضربه ، لاشيء يجبرني لأكذب عليك ، حقيقة أنا لم أضرب أحداً في حياتي ، علماً بأني ضُرِبْتُ كثيراً في حياتي كما أن أبي وأمي كانا يضرباني كثيراً ، ومعلميَّ أيضاً كانوا يضربوني ، وكثيراً ماكان أصدقائي يضربوني أيضاً . . .

جلس على مؤخرته في المكان الذي قرفص فيه :

– لقد بقيت أشهراً عاطلاً عن العمل ، إن الحياة صعبة للغاية ، فقط لوتعرف كم قاسيت حتى لحظة دخولي إلى سلك الشرطة ، لوشرحت لك سترأف لحالي . . . ولهذا لاأريد أن أُطرد من عملي كشرطي لأني لم أنجح في إتمام أول مهمة لي ، أرجوك ساعدني . . .

سعل الشرطي بصوت منهك ومتقطع ، وسعل المتهم أيضاً – الذي يقف على أصابع رجليه ، وبدأا يتبادلان السعال (مسابقة السعال) وكلما مال سعال الشرطي إلى الخفوت والإنهاك كان سعال المتهم يقوى ويشتد .

ثم وقف رجل الشرطة فجأةً وصرخ :

– إنك تعذبني . . وليس لك أي حق في ذلك ياسيد . . . . ماذا؟

– موتيرا . . .

– ياسيد موتيرا أرجوكم . . لاتجبروني على ضربكم . . أقول لك لاأستطيع فعل ذلك . . . لاأستطيع أن أضربكم أرجوكم . . . أتوسل إليكم . . تكلموا – قولوا شيئاً .

صمت لبرهة ثم تابع بصوت رخيمٍ:

- إني أفهمكم فلاتظنوا غير ذلك، ولكني أطلب منكم أن تفهموني أرجوكم، إني أضع نفسي مكانكم، أقول بيني وبين ذاتي ماذا لو أني مكان هذا الرجل؟ هل كنت سأتكلم من تلقاء ذاتي ودون أن أُضرب؟ ولهذا أرجوكم أن تضعوا نفسكم مكاني، هل تريدون أن أُطرد من عملي وأُصبح عاطلاً عن العمل من جديد، وأن يقاسي أطفالي من آلام الجوع والحرمان؟ أرأيتم؟ لاتريدون طبعاً. . . اذاً تكلموا، لقد وظفوني لكي أضربكم، ولو استطعت إرغامكم على الكلام سيكون هذا العمل أول نجاح في حياتي الوظيفية. أرجوكم أن تساعدوني ماذا ستخسرون؟ . . .

بدأ رجل الشرطة بالتجوال في أرجاء الزنزانة وهو يضرب راحة يده بقبضة اليد الأخرى، ويحادث نفسه:

- آه ياإلهي . . . أعطني القوة، أعطني الشجاعة. . ياإلهي كيف ستطاوعني نفسي على ضرب رجل دون أي مناسبة، ياإلهي . . .

التفت إلى المتهم وقال:

- إذاً ساعدني أنت، على الأقل ساعدني، حاول إغضابي مثلا، افعل شيئاً يخرجني عن طوري، وبذلك أستطيع ضربك، افعلوا شيئاً قولوا شيئاً ياسيد. . . ماذا؟

- موتيرا. .

- ياسيد موتيرا. . استفزوني قليلاً، أرجوكم ياروحي، استفزوني لكي أضربكم أتوسل إليكم. ماذا ستخسرون؟

توسل رجل الشرطة للمتهم قليلا، ولكنه عندما فهم أن توسلاته لن تجدي نفعا قال:

- أنتم أعطيتموني الحق في ضربكم، لقد برئت من خطاياكم لأن جلدكم يحككم على مايبدو، ولكن أنا . . . انا ... انا . . .

صمت ثم تابع بلهجة رقيقة قائلاً:

- سأعترف لك بأمر، إنني اليوم رجل شرطة وهذا لطف من الله الذي جعلني رجل شرطة، فلو بقيت أيام أخرى عاطلاً عن العمل لحدثت كارثة، لأني كنت سأسرق، فلو لم أصبح شرطياً لاصبحت لصاً، ولكني أصبحت شرطياً كما ترى، وربما لأنكم لم تتوظفوا في سلك الشرطة. . . . هل أشرح لكم قصة حياتي أتريدون أن تستمعوا ؟

جلس الشرطي والمتهم متقابلين على الأرض.

- لقد عانيت كثيراً ياسيد. . . ماذا؟

- موتيرا. . .

- ياسيد موتيرا، سأقول لكم سراً على أن يبقى بيننا، لقد ضربني رجال الشرطة في إحدى المرات إنك تفهمني الآن أكثر اليس كذلك؟ لقد ضربوني في المخفر، وعندما تأكدوا من براءتي أخلوا سبيلي، لقد أثبتت براءتي حقاً علماً أني لم أكن بريئاً، كذبت وأنقذت نفسي، أنتم أيضاً اكذبوا كذبة ما. . . (صرخ) اكذبوا ياروحي. . اكذبوا أنتم وأنا سأضربكم لأنكم تكذبون.

صمتا. . .

كما أني لن أستطيع أن أمضي الكثير من الوقت معكم اذا لم تتكلموا، لان رؤسائي سيغضبون مني ويسألوني: ماذا فعلت كل هذا الوقت عند المتهم، إنك تتحكم بلقمة عيشي، وستكون سبباً في طردي من عملي.

نهض على قدميه وأمسك بياقة قميص المتهم، ورفعه كما يرفع كيساً فارغاً، ثم وضع يده على كتف المتهم برقةٍ وقال:

- إنكم في موضع اتهام ولذلك فمن حقكم الإستمرار في صمتكم، ولكني أنا كرجل شرطة من حقي ضربكم كي أجبركم على التكلم ، أليس كذلك؟

أرجو أن تتقبلوا ذلك، ولكنكم لاتفعلون شيئاً من أجل مساعدتي في إتمام مهمتي، اخلقوا سببا ما لكي أضربكم، أرجو أن تسهلوا عملي، ألاتستطيعون أن تَسْدوا لي بهذه الخدمة البسيطة؟

وفجأة رفع يده في الهواء وهم بضربه . . . . سيضربه . . . سيضربه . . . ثم أسبل ذراعيه، جرب هذه العملية عدة مرات، ولكن في كل مرة كانت يده تتدلى بعد أن تُرفع في الهواء دون أن تضرب المتهم. ثم وضع رجل الشرطة يديه على كتفي المتهم وخاطبه بلهجة أبوية قائلاً:

لنتفق فيما بيننا، ولكن على أن يبقى سراً بيننا، إنه اتفاق سري، اصرخوا بصوت عال كما لوأني أضربكم، وتوسلوا لي بشدة، اصرخوا وكأنكم تتألمون، فيسمع الذين في الخارج صراخكم ويعتقدون بأني أضربكم، ألايمكن أن تفعلوا ذلك ياسيد . . . . ماذا؟

- موتيرا . . .

هل اتفقنا ياسيد موتيرا؟ هيا اصرخوا كما لو كنتم تُضْرَبونْ، هيا . . .

انحنى على الأرض كي يلتقط العصا ثم قال:

- هيا سأضرب بالعصا في هذا الإتجاه وذاك الإتجاه لكي أُخرجَ أصواتا وضجيجاً وكأني أضربكم، اتفقنا اليس كذلك، هيا ابدأوا بالصراخ، اصرخوا بصوت عال لكي يسمع الذين في الخارج . . . هيا . . . صمت . . .

- إنك عنيدٌ جداً ياسيد. . . . ماذا؟

-موتيرا. . .

- ياسيد موتيرا، لوأن الذين في الخارج لايعرفون صوتي جيداً لصرخت بدلاً عنك وكأني أُضرب كما أنهم سيطردونني من سلك الشرطة اذا ماكشفوا الخطة.

بدأ بالتوسل:

- ارأف بحالي، أرجوك، إني أتوسل اليكم، اصنع لي هذا الجميل، إما أن تتكلم من تلقاء ذاتك أوأن تفعل شيئاً ما يغضبني فآخذه سبباً لضربك، استفزني أرجوك. . . أثِر اعصابي. . .

* * *

صالب رجل الشرطة يديه أمام صدره، ثم حلهما وشابكهما وراء ظهره، ثم تجول حول المتهم فترة قصيرة وبعد ذلك ضرب المتهم بكتفه فأوقعه أرضاً، فندم على هذه الوقاحة التي بدرت منه.

قال:

عفواً.

ثم ساعد المتهم لكي ينتصب على رجليه. ومن جديد بدأ يحوم حول المتهم، ثم ضربه بذراعه فأوقعه أرضاً مرة أخرى، ثم أنهض المتهم من المكان الذي أسقطه فيه وصرخ قائلاً:

- هيا افعل شيئا من أجلي.

ثم حدث نفسه قائلاً:

- لاأستطيع أن أغضب، لاأستطيع.

ثم انحنى زاعماً:

- لقد حل رباط الحذاء من جديد .

وعندما هم بربطه ، شده بسرعة وبقوة فانقطع الرباط إلى قسمين . فصرخ قائلاً :

- لايصنعون شيئاً بشكل جيد ولا يعتنون بمتانة أي شيء ، كل الرباطات هشة وغير متينة الوقحون أيعقل أن تشتري رباطاً للحذاء كل اسبوع ، كل أسبوع اعطِ خمسين قرشاً وخذ رباطاً غير متين .

كان غضبه يزداد شيئاً فشيئاً ، وكلما ازداد غضبه كان يصرخ بصوت أعلى وأعلى :

- ماذا سيحدث لو صنعوا رباطات متينة ، ماذا سيحصل آ آ آ ؟ يُقطع بشَدَّةٍ واحدة الغشاشون . . . . صار يصرخ بغضب لدرجة أن المتهم انحشر في الزاوية ورجلاه ترتجفان من شدة الخوف .

- ماأن نِهمَّ بربطه حتى ينقطع . . . الحقير . . . عديم الشرف . . . جحش ابن جحش . . .

وفجأة ، ودون أن يشعر بنفسه ، ضرب المتهم بقبضة يده ضربة سريعة وقوية ، ثم دُهش لما فعله ، نظر الى يده التي ضرب بها بدهشة وسرور ثم ضربه كفاً آخر . . .

ثم قال وعلامات السرور واضحة على وجهه :

- لقد ضربته . . . هأنذا اضربه . . . اني اضربك ياسيد . . . . ماذا؟

- موتيرا . . .

- ياسيد موتيرا . . . هأنذا أضربك . . . لقد استطعت أن أضربك .

فقال المتهم :

- من الآن فصاعداً ستصبح قادرا على الضرب باستمرار .

ثم بدأ رجل الشرطة يضرب بباطن يده حينا ، وبقبضة يده حينا آخر ويركله حيناً آخر ، فصار المتهم يرتطم بالجدران من شدة الضرب الذي يقع على جسده وهو يشتم ويسب ويصرخ . . . .

* * *

رومانس البكاء سَكَراً

لم يعلق تحسين الأشقر شبكات الصيد أمام خمارته لكي تشكل ديكوراً ما، ولم يضع هذه الفطور أمام نافذة الخمارة كزينة ما، لقد وُجِدَتْ هذه الأشياء من تلقاء ذاتها. هنا وُجِدَ كلُّ شيء من تلقاء ذاته، مصادفة بلا سابق تخطيط. . . لم تسحب قوارب الصيادين إلى الشاطىء الحجري لتشكل زينة ما، ولم يُنشيء تحسين الأشقر خمارته على الشاطىء عن سابق تفكير وإرادة. السبب الوحيد في وضعها هنا انه لم يفكر في مكان اخر، لقد أحضر كل ماستطاع الحصول عليه الى هذا الشاطىء المهمل، ألواح الصفيح، أكياس، تنك، ألواح التوتياء، براميل قديمة، بيدون مثقوب، أحجار، ألواح خشبية، ألواح مقطرنة، جمع كل هذه الأشياء وأنشأ منها هذه الخمارة على الشاطىء.

للخمارة نافذتان صغيرتان وباب واحد، فاذا مانظرتَ من النافذة فانك ترى الشاطىء المقابل من خلال مراكب الصيادين التي ترفع أنوفها شامخة الى السماء ومن خلال شبكات الصيد. كم مرة حاول تحسين الأشقر رفع شبكات الصيد لأنه يحب أن يرى هذا المنظر بشكلٍ واضح ولكنه تراجع امام معارضة بعض الزبائن.

لقد عرشت نبتة (المدِّيدة) على الخمارة من كل جوانبها فلم يبقَ إلا النافذتانِ الصغيرتان والباب لم تغطهم نبتة (المدِّيدة) كما أن شجرة المشمش تفيء بظلها على كامل السطح، وأمام النافذتين تستطيع أن ترى نبتةَ (يد الخاتم) وقد ملأت المكان، وأما من الجانب الخلفي فقد امتلأ بالورود البرية ونبات اللبلاب، وتحت الصقالة

المنصوبة أمام الخمارة يوجد ستة طاولات، ماأن تغيب الشمس ويعم الفيء حتى تُسحب كل الطاولات التي تحت الصقالة.

كل شيء هنا وُجِدَ من تلقاء ذاته، حتى ليخيل للمرء أن هذه الأشياء وجدت هنا منذ قديم الزمان، وكأن هذه الخمارة أوجدت منذ الأزل ثم أتى تحسين الأشقر واستوطن فيها.

يسير في الطريق من جهة التي يوجد فيها الظل هروبا من أشعة الشمس شابٌ يافعٌ أتم دراسته في الثانوية الخاصة (الكوليج)، لم يحدد حتى الآن ماالذي سيفعله بشأن مستقبله، كان قد قرر أن يذهب الى أمريكا غير أنها لم تعجبه، ثم قالوا له يوجد مدينة تدعى باريس، لكن هذه أيضاً تسبب له الضيق حسناً؟! إنه يكتب الشعر ويجيد إلقاءه، لكنه لايقرؤه أمام أحد، تعرف من منظره بانه مضطرب علماً بأنه وجداني وحساس ومتقوقع في عالم خاصٍ به. وأما مرحه وكلامه الزائد لدرجة أنه لايترك لغيره دوراً في الحديث فليس ليلفت الانتباه إليه وحسب، بل لكي يخفي حقيقة ذاته، ويظهر بمظهر خارجي لايشبهه في الحقيقة.

ولأنه يكتب الشعر فهو يسخر كثيراً من الشعراء، عندما يكون وحيداً يبكي ولكن ماأن يرى باكياً حتى يسخر منه.

دائما ترى هذا الشاب الذي يظهر بمظهر اللامبالي وقد تدلت من طرف شفتيه ساق عشب يابسة، وبين الحين والآخر يسحق قليلاً من طرف هذا الساق بأسنانه، يمشي وهو يطلق من بين شفتيه صفيراً ما، وقد امتلأ وجهه بالحروق بسبب تعرضه للشمس والبرد والهواء.

حاد عن الطريق الرئيسي ونزل إلى الطريق الترابي متجهاً الى الخمارة مثيراً وراءه غبار الطريق.

– هيـيـيـيـيـه.... تحسـين آبي(*) ي ي ي ي ي ي ي ي ي ......

(*) ا ابي: الاخ الاكبر، ويستعملها المتكلم عند مخاطبة من هم أكبر منهم سنا. وابلى: تقال للمؤنث.

نادى بهذه الطريقة عدة مرات، ثم جلس إلى إحدى الطاولات الموجودة تحت السقالة:

- تحسين آ ابي يـ ي ي . . . هيـ يـ يـه . . .

سُمع صدى صوت تحسين الأشقر من بوفيه الخمارة وكأنه قادمٌ من دهاليز المخزن:

- هل هذا أنت يانوري ي ي ي . . . .؟ ولك يابني، لقد أوقفت بلعة العرق في بلعومنا، مما تشتكي؟ لماذا تصرخ؟

وبدأا بالحديث دون أن يرى أحدهما الآخر:

- ولك، لقد حضر زبون.

- ومن هو هذا الزبون، هاااااه؟

- انا، ألا تعتبرني زبوناً؟

- أنت تحتاج لعشرة أرغفة خبز كي تصبحَ زبوناً.

- أي نوع من الخمارات هذه؟.

- يابني، لاتثرثر هنا. . . في كل زاوية من هذا المضيق يوجد خمارة، فاذا لم تعجبك هذه الخمارة اذهب من هنا واجلس في أي خمارة تشاء. هيا. . . اذهب. . .

- وهل هذا ماأقصده ياتحسين آ بي؟ ألايوجد هنا من يقدم لي كأساً من العرق؟

- اصمت الآن، لاتفسد مزاجي، إنني أشرب ولن أفسد مزاجي حتى ولو جاء الصدر الأعظم.

- ألست أنت صاحب هذه الخمارة؟ هيا إذن أحضر لي عرقاً.

- انظر إلي، كوني صاحب خمارة هذا لايعني أني خدَّامٌ عند أبيكً . . ولا !!!! . . إنهض واحضر لنفسك ماتريد . . . لاأعتقد بأنك تجهل مكان وجود العرق ولا !!!! . . .

دخل إلى الخمارة المظلمة حيث كان تحسين الأشقر يشن عرقه في البوفيه ،

- مرحبا تحسين آبي .

- هاه . . هكذا . . . في البداية قدم التحية وبعد ذلك اسحب سلاحك بوجهنا واطلق رصاصك إن شئت ، هاهو العرق على الرف ، أحضر كأساً واملأه .

- ألا يوجد سلطة أوأي شيء آخر؟

- مثل ماذا؟

- ولك ياتحسين آبي ، لاتقل هذا ، هنا خمارة ، ويجب ألاتسأل سؤلاً كهذا ، أريد سلطة . . .

- أقصد مانوع السلطة التي تريدها الآن؟

- سلطة بندورة؟

- لايوجد .

- سلطة خيار .

- هذه أيضاً غير موجودة .

- ماذا يوجد إذاً؟

- انقلع من هنا .

- هل يوجد بطيخ؟

- ولك ياولدي ، من يريد أن تكون مقبلاته بطيخاً ، فليحضر تحت إبطه بطيخة وليأتِ .

شرب الشاب العرق الموجود في كأسه، ثم قطب وجهه ومسح فمه بظاهر يده، وقال:

- حسناً، مادام الأمر كذلك سأذهب لإحضار شيءٍ ما، بطيخ، جبنة، بندورة، . . . الخ . . .

- هيا اذهب واحضر ماتشاء . . . يابني هنا خمارة فعلى كل شخص أن يحضر بيده خرجاً مليئاً.

- قل بأن هذه تكية.

سُرَّ تحسين الأشقر وبدأ يضحك ضحكة (بحر أسودية)(*).

عندما عاد الشاب الى خمارة تحسين الأشقر، كان الظلام قد خيم على المكان، وكان الزبائن يجلسون على طاولاتهم ونادلان يتراكضان بين الطاولات من أجل تلبية طلبات الزبائن.

كان تحسين مازال يشرب العرق في البوفيه، وكان النادلان يخدمان الزبائن الجدد فقط بينما الزبائن القدامى يخدمون أنفسهم بأنفسهم ومن جهة أخرى يمازحون تحسين الأشقر.

أحد هؤلاء الزبائن المداومين كان قد أحضر أصدافاً طبخها في بيته، ثم وضع صدفتين في صحن تحسين الأشقر. وبعضهم كان يكسر بطيخاً وبعضهم الآخر يحضر السلطة وبعضهم مشغول بتكسير الثلج.

خاطب تحسين الأشقر زبائنه المداومين قائلاً:

- ولك . . . كل واحد منكم مشغول بنفسه، ألا يوجد بينكم من يقول لأملأ هذا الكأس عرقاً لهذا العبد الفقير تحسين، ألم يبق ذرة إنسانية فيكم.

* * *

(*) المقصود المناطق الواقعة على ساحل البحر الأسود إذ أن لها لهجة خاصة ومميزة.

في الجهة المقابلة، كان القمر قد استدار بشكل كامل، كان نوري يجلس على طاولته وحيداً يراقب الأضواء الموجودة على الشاطىء المقابل من المضيق بيد أنه لايرى شيئاً بل كان يشرب، وكان يجلس بجانبه على طاولة أخرى رجلٌ وحيدٌ وهو الآخر يشرب أيضاً، كان يشرب من كأسه ويبكي، وقد أسند مرفقيه على الطاولة ووضع جبهته في يده واستمرفي بكائه، كان الرجل يبكي ويبكي دون توقف حتى ليخيل للمرء أن هذا الرجل سيستحيل دمعاً ويذوب ممتزجا بمياه المضيق.

حاول نوري أن يبقي رأسه متجهاً نحو المضيق كي لايرى بكاء هذا الرجل. ثم ازداد فضوله وتساءل أما زال الرجل يبكي؟ فالتفت نحوه دون أن يشعر، نعم مازال يبكي... كانت دموعه تنسكب في قدحه فيشرب من القدح رشفتين ثم يتابع بكاءه من جديد ودون أية فاصلة... كيف يتسنى لرجلٍ أن يبكي بهذه الإستمرارية؟ منذ عدة ساعات وهو يبكي... مال الشاب برأسه نحو المضيق بشكل كامل. ولكنه لم يستطع التغلب على فضوله، فقد كان يلتفت نحو الرجل بين الحين والآخر، وكان هذا الرجل قد تسمر في مكانه بالوضعية نفسها، يمسك جبهته بيده ويسند مرفقه على الطاولة ويتابع بكاءه دون توقف... إنه يبكي من صميم قلبه، يبكي دون انقطاع.

غضب الشاب في بداية الأمر، ثم اشتد غيظه وبعد قليل تأثر كثيراً وتألم من أجل هذا الرجل.... ولكن... ماذا سيفعل؟

ولج الى الداخل وسأل تحسين الأشقر الذي كان يتابع شربه في بوفيه الخمارة:

- تحسين آبي.. يوجد رجل يجلس على الطاولة التي بجانبي، ولك لقد اسقمني هذا الرجل، منذ جلوسه على الطاولة وهو يبكي دون توقف، بالله عليك قل لي مَنْ هذا الرجل هل تعرفه؟

وبعد أن ضحك تحسين الأشقر ضحكة بحر أسودية جميلة قال :

- زبون، أنت تدّعي بأنك زبونٌ ولانستفيد منك إلا وجع الرأس إن هذا الرجل من الزبائن الخاصين جداً، يأتي في الشهر مرة أومرتين، يبكي مثل الأفندي ثم يشرب عرقه ويذهب .

عاد الشاب إلى طاولته، كان الرجل مايزال يبكي وينوح . . . ولم تكن التفاتة نوري نحو الجهة الأخرى تفيده في شيء فقد كان صوت بكاء الرجل يصل إليه واضحاً . - فكر في مغادرة المكان والذهاب إلى خمارة أخرى أو البيت أوالى أيّ مكان آخر، ولكن الرجل سيستمر في بكائه . ألن يسمع بكاءه . . . ألن يسمعه؟ نعم سيسمعه، سيصبح بكاؤه مختلفاً، ألم تحدث معك هذه الحالة . . . أن يلحق بك الصوت الذي كنت تسمعه أنيّ ذهبت، لقد فر طعم هذه الليلة الجميلة، هل يوجه لهذا الرجل لكمة على وجهه؟ أم يمسكه من عنقه بيديه الاثنتين ويضغط حتى يسكته؟ ام هل يتوسل اليه؟

اقترب منه وقال :

- عفواً ياسيدي ارجو ان تعذرني لوقاحتي، هل اسبب لك إزعاجاً اذا ماجلسنا على طاولة واحدة؟ ام تزيدني شرفا وتقبل بان تحل ضيفا على طاولتي؟ لقد تعلم لغة الخمارات وحنكتها بطريقة ما ، يجب ان يتحدث المرء بلهجة الرجال المسنين .

كان الرجل الباكي مؤدبا جدا، نهض وقال :

- استغفر الله، انت تأمرني .

ثم ذهب الى طاولة الشاب .

لم يكن موجودا على الطاولة التي قام عنها سوى زجاجة عرق وزجاجة ماء وقدحٍ، احضر الشاب هذه الاشياء وجاء، جلسا قبالة بعضهما، لم يكن الرجل

ينظر الى المضيق، ولم يكن ينظر الى القمر، بل كان يبكي وهو يضع رأسه براحتيه، ملأ الشاب قدحه وقال:

- في صحتكم.

سكب كأس العرق، ثم امسك رأسه براحته واستمر في بكائه.

- هل تأمرني باحضار المقبلات؟

- لا لا شكرا ياسيدي.

يرد على السؤال ومن ثم يعود إلى بكائه.

كان شعر لحيته قد طال قليلا وشعر رأسه ايضا، واما ربطة عنقه فقد كانت بالية وممزقة بشكل واضح، كان لباسه قديما ولكنه متناسق، قميصه نظيفٌ وبنطاله مكوي، وشعره ممشط..... يبكي ويبكي.. ويبكي، ، سيسيل الرجل ويمحى من كثرة البكاء.. دهش الشاب اذ كيف لرجل أن يخلق كل هذه الدموع؟

- بصحتكم ياسيدي المحترم.

- بصحتكم ياسيدي.

تابع الرجل بكاءه بينما الشاب بدأ بقضم أظافره من شدة غيظه.

- عفواً ياسيدي أرجو ألا أسبب حرجاً في سؤالي، أرجو أن تعذروني، أنتم، لماذا تبكون؟ لقد تأثرت كثيراً ولهذا أسأل، بدأ الرجل الباكي حديثه، كان يبكي من جهة ويتكلم من جهة ثانية، فلم يقطع بكاءه أثناء حديثه. وكل ماقاله يتلخص بعشر كلمات أوخمس عشرة كلمة. كان يرددها بشكل مستمر، قال:

- أنا ياسيدي أشرب كل يوم، أشرب وأشرب و أبكي وأبكي... أنا ياسيدي أبكي ياسيدي وأشرب... أنا هكذا... أنا أتصرف دائما بهذا الشكل أشرب وأشرب وأبكي ياسيدي، أمضيت خمسةٌ وعشرين عاماً من حياتي في المسرح، انني فنان مسرحي ياسيدي، انا ياسيدي أشرب وأشرب وأبكي، انني اعمل مع جوقة المسرح ياسيدي، أعمل منذ خمسة وعشرين عاما مع الجوقة، أنا

ياسيدي أشرب وأشرب وأبكي، بيتهوفن فنان كبير وشوبان أيضاً وشيكسبير فنان كبير ياسيدي، ولأنني لم آخذ فرصتي فقد بقيت فناناً مودْياً ياسيدي إنني أشرب وأشرب كل يوم وأبكي ياسيدي، شكسبير عظيم ياسيدي وأنا لأني لم آخذ فرصتي فقد بقيت فناناً مؤدياً، أعمل مع الجوقة منذ خمسة وعشرين عاماً، وأنا أعمل في الجوقة ياسيدي. . . أنا أشرب كل يوم وأبكي. أتقاضى يوميتي عشرين ليرة ياسيدي. . . أنا كل ليلة أشرب وأشرب وأبكي ياسيدي. . . يبقى عشر ليرات من العشرين ليرة التي أتقاضاها في جيب رئيسي في العمل كرهينة كي لانترك العمل في المسرح ياسيدي، إنني أشرب كل ليلة، أشرب وأبكي ياسيدي، لقد بقيت فناناً مؤدياً لأنني لم آخذ فرصتي ياسيدي، بيتهوفن عظيم ياسيدي وشوبان أيضا، شكسبير عظيم ياسيدي، انه فنان عظيم ياسيدي، واما انا فقد بقيت فنانا مؤديا لاني لم أخذ فرصتي. . . انا ياسيدي، اشرب كل ليلة اشرب واشرب وابكي ياسيدي كان عندي الكساندرا ياسيدي، كانت الكساندرا لي ياسيدي، وبعد ذلك صارت الكساندرا لنا ياسيدي كانت الكساندرا لي ثم اصبحت الكساندرا نا وبعد ذلك أصبحت الكساندرا، الكساندراي، الكساندرانا، الكساندرا. . . أنا كل ليلة أشرب وأشرب وأبكي ياسيدي، كانت ألكساندراي، وفي إحدى الليالي في المخفر، في المخفر ذات ليلة، أنا ياسيدي أشرب وأشرب وأبكي ياسيدي، أعمل في الجوقة، منذ خمسة وعشرين عاما أتقاضى يومياً عشرين ليرة، يبقى في ذمتهم منها عشر ليرات ياسيدي. . . وذلك كي لانهرب من المسرح ياسيدي، كل ليلة أشرب وأشرب وأبكي ياسيدي، بيتهوفن وشوبان وشكسبير فنانون عظماء ياسيدي. . . . إنني أشرب كل ليلة، أشرب وأبكي ياسيدي. كانت الكساندراي وذات ليلة في المخفر أصبحت الكساندرانا ثم أصبحت، فيما بعد، الكساندرا. . . أنا أشرب كل ليلة، أشرب وأبكي، أنا في الجوقة ياسيدي. . . منذ خمسة وعشرين عاما. . . إنني فنان مؤدي، أنا ياسيدي كل ليلة أشرب وأشرب وأبكي . . . .

يبكي الرجل ويتحدث، ثم يبكي ويتحدث، ويردد بشكل مستمر هذه الخمسة عشر كلمة، ولكنه كان يركب من هذه ا لكلمات تركيبة تحمل معنى جديداً ومختلفاً، وكأنه يتحدث عن شيء مختلف عما كان يتحدثه. يبكي دون توقف ويتحدث دون توقف.

فهم الشاب أخيراً السبب الذي يُبكي هذا الرجل

- أنا ياسيدي أشرب كل ليلة، أشرب وأبكي.

- فهمت ياسيدي.

- الكساندرا... الكساندراي... الكساندرانا... أنا ياسيدي.

- أفهم ياسيدي.

- بيتهوفن أيضاً وشوبان أيضاً، ولكني أنا مؤدي...

- أفهم ياسيدي.

- منذ خمسة وعشرين عاماً أعمل في الجوقة... عشرون ليرة، يبقى منها عشر ليرات في جيوبهم... بحجة أننا قد نهرب... أنا ياسيدي أشرب وأشرب وأبكي.

- أفهم ياسيدي.

* * *

عندما استيقظ الفتى، في اليوم التالي، لم يعرف ولم يتذكر متى وكيف عاد إلى بيته، وهذا يعني أنه نام يوماً كاملاً، نهض من فراشه، هم بحلق ذقنه ولكنه لم يحلقها. استحم، لبس ثيابه وخرج من البيت. اتجه نحو خمارة تحسين الأشقر، كان الوقت مبكراً اذلم يشغل الزبائن، بعد، سوى ثلاث طاولات من تلك الموجودة تحت الصقالة...

طلب عرقاً من النادل الذي يعرفه، فسأله النادل:

- هل تريد مقبلات؟

فقال:

- لا... أريد عرقاً وماء فقط.

لقد قرر، هذه الليلة، أن يبكي.

امسك جبهته بباطن يده، وأسند مرفقيه على الطاولة... جيد... شرب كأسين من العرق دون توقف... ولكنه لم يستطيع البكاء استذكر الكلام الذي قاله الرجل البارحة..

سأله تحسين االأشقر وهويمر بجانب طاولته:

- مابك يابني يانوري... ماالخطب؟.

لم يستطع الشاب الذي يحاول البكاء سوى أن يملأ عينيه بالدموع.

جلس تحسين الأشقر على كرسي بجانب الشاب، وقد فهم مايحاول القيام به، فضحك من جديد ضحكة (بحر أسودية) جميلة وقال:

- دعك من هذا فلن تستطيع البكاء.

- لماذا؟.. هاأنذا أبكي.

- يابني، لن تستطيع البكاء، حتى وإن استطعت فلن تستطيع أن تبكي مثلما يبكي الرجل، إنه عمل مختلف إن ذاك الرجل يبكي منذ خمسة وعشرين عاماً ولا ||||| ... إن وظيفة هذا الرجل هي البكاء... لن تستطيع ان تبكي مثله، إن يومية هذا الرجل عشرون ليرة، عشر ليرات منها تبقى في جيوبهم، أما أنت فإنك تأخذ ثمن العرق الذي تشربه من والدك... لن تستطيع أن تبكي...

كان تحسين الأشقر يحب أن يستمر بضحكته الـ بحر أسودية ولكنه لم يحتمل الإستمرار بالضحك، فقال:

- هيا.. هيا.. كل واشرب ومن ثم اذهب متى شئت، واذهب إلى أمريكا أيضاً، كن دكتوراً إن شئت أومهندساً وعد بعد ذلك إلى البلد....... وإن بقيتُ حياً إلى ذاك الزمن فسيكون عرقك على حسابي الخاص.

ثم نهض تحسين الأشقر.

سكب الشاب كأس العرق في حلقه بجرعة واحدةوبدأ يردد وهو يبكي:

- إنني أشرب كل ليلة وأشرب ولكني لاأستطيع البكاء ياسيدي.... لاأستطيع البكاء ياسيدي.

راح يردد بدون انقطاع وهو مستمر في بكائه:

- لاأستطيع البكاء ياسيدي... أشرب وأشرب... ولاأستطيع البكاء ياسيدي.

لقد ارتاح كثيراً... وفرح أكثر...

- لايوجد عندي الكساندرا ياسيدي... كل ليلة أشرب وأشرب ولكني لاأستطيع البكاء ياسيدي... أنا لست فناناً مؤدياً ياسيدي، منذ خمسة وعشرين عاماً ياسيدي، ولاأتقاضى في اليوم عشرين ليرة ياسيدي، ولايأخذ معلمي منها عشر ليرات، وأنا لم أعمل في جوقة المسرح ياسيدي، لم يأخذونا إلى المخفر ذات ليلة ياسيدي... ولايوجد عندي الكساندرا ياسيدي... أنا أشرب وأشرب ولاأستطيع البكاء ياسيدي....

وتابع الشاب بكاءه.

* * *

غنائية مجانين قريتي

١ـ أشرقي ياشمسي أشرقي.

هنا... في قرية «قعر الصخرة المائلة»... يتميز جميع الأطفال عن غيرهم بأن لهم قفصاً صدرياً مضغوطاً نحو الداخل.

لقد أشيدت هذه القرية في قعر صخرة ضخمة تمتاز بقمة مسننة، فأصبحت هذه الصخرة أشبه ماتكون بفم كلب غاضب ينبح نحو الغيوم. وأما قطعان الغيوم فهي تنام فوق قمة الجبل الضخم ذي الأسنان الحادة القاطعة. يرى الناظر إلى تلك الغيوم المستلقية أنها مقسمة إلى قطع مستقيمة وعمودية. تتفرق قطع الغيوم بسبب الرياح فتسمح بذلك لغيوم أخرى بالإقامة فوق قمة الجبل ذي الأسنان الحادة.

الصخرة الواقعة شرقي القرية تحجب الشمس لأنها تمددت بشكل مائلٍ فوق القرية. ولهذا السبب لايرى سكان القرية شروق الشمس أبداً.

ففي الوقت الذي تكون فيه الشمس مضيئة ومشعة فإن قرية «قعر الصخرة المائلة» تكون في الظل. ترتفع الشمس في الأفق وترتفع وعندما يصبح الوقت ظهراً في الأماكن الأخرى. عندئذ فقط تظهر الشمس من خلال أسنان الصخرة الحادة فترسل أشعتها وضياءها إلى القرية. ولكن هذا الضياء لايطول كثيراً؛ إذ أنه يوجد جدولٌ في الجهة الغربية للقرية وفي الطرف الآخر للجدول يوجد سلاسل جبلية. إن الشمس تغيب خلف تلك السلاسل الجبلية في وقت مبكر.

ولأن بيوت القرية قد بُنيت في قعر الصخرة المائلة فإن السيل الذي يحدث في الشتاء ينزع الصخور الكبيرة من مكانها ويجرفها . وهذا مايجعل البيوت تنسحق تحت هذه الصخور المتدحرجة . وهكذا تُزهق عدة أرواح كل شتاء .

في قرية قعر الصخرة المائلة يوجد مشاكل كثيرة .

في قرية قعر الصخرة المائلة يأتي الليل باكراً .

في قرية قعر الصخرة المائلة يتأخر الصباح كثيراً .

في قرية قعر الصخرة المائلة الليل طويل والنهار قصير .

عندما يستيقظ أطفال قعر الصخرة المائلة كل صباح ، يصرخون :

- أمي ي ي ي . . . نريد خبزاً . . . أمي ي ي . . نريد خبزاً .

وأما الأمهات في القرية فإنهن يلهين أطفالهن قائلات :

- هيا ، نم ، افطس ، لم تشرق الشمس بعد .

الوقت يمر لكن الشمس لاتظهر فيعود الأطفال للبكاء من جديد :

- أمي ي ي . . . رغيف خبز ، أمي . . . . رغيف خبز .

فتصرخ الأمهات :

- سُدَّ حَلْقَكَ ، لم تشرق الشمس بعد .

يخرج الأطفال من بيوتهم إلى الأزقة والطرقات ثم يوجهون أنظارهم إلى أسنان قمة الصخرة المائلة ، بعدئذ يذهبون إلى قعر الصخرة فيترجون الشمس ويتوسلون إليها قائلين :

- أشرقي ياشمس أشرقي . . . أشرقي كي تطعمني أمي خبزاً .

يتوسلون للشمس وهم يضربون على صدورهم بقبضاتهم :

- أشرقي ياشمس أشرقي .

ثم يلكم الطفل الصغير بقبضته على قفصه الصدري قائلاً:

- هيا أشرقي ياشمسي، كي تطعمني أمي خبزاً.

ويليها بلكمة أخرى.

لهذا السبب ترى سكان قرية الصخرة المائلة يمتازون بصدور مائلة نحو الداخل وظهور محدبة ورؤوس مائلة.

ثم لايلبث الأطفال أن يكبروا ويصبحوا آباء وأمهات، وفي هذه المرة يطلب أطفالهم منهم قائلين:

- أمي أريد خبزاً، أبي أريد خبزاً.

- الشمس لم تشرق بعد.

- أشرقي ياشمسي أشرقي، أشرقي كي يطعمني أبي وأمي خبزاً.

٢- الإطعام لمدة أربعين يوماً:

لقد اشتاق سكان قرية قعر الصخرة المائلة. للشمس، وكانوا يريدون التخلص من هذه الصخرة الضخمة التي ينسحق تحتها كل سنة عدة أشخاص مع بيوتهم. وفي يوم من الأيام، جاء درويش إلى قرية قعر الصخرة المائلة.

لقد غارت وجنتا هذا الدرويش من شدة الجوع. والتصق جلده الشاحب الأصفر بهيكله العظمي.

الدرويش النازل إلى القرية سمع الإستغاثات الصاعدة نحو السماء ودهش:

- أشرقي ياشمسي أشرقي، كي يطعمني أبي وأمي خبزاً.

كما كانت الصخور تردّد أصداء نواح النساء. فلقد وقعت واحدة من الصخور التي جرفتها السيول على بيت من بيوت القرية. وسحقت من فيه.

ذهب الدرويش المسكين إلى شيوخ القرية. وقال لهم:

- بإستطاعتي تخليصكم من بلاء هذه الصخرة الضخمة.

– وكيف ستخلصنا منها؟! .

– سأنقل هذه الصخرة المائلة وأرميها في مكان بعيد عن هنا . وأتركها هناك .

– دخيلك يادرويش ، لاشك أنك سيدنا الخضر الذي يحكون لنا عنه .

لاشك أن الله قد أرسلك إلينا . إن بإستطاعتك فعل كل شيء . . . هيا . . خذ هذه الصخرة كي ترى قريتنا الشمس .

– سأنقل الصخرة ، ولكن بعد أن تطعموني أربعين يوماً من أطايب الطعام الفستق والبندق والزبدة والعسل والبقلاوة والدبس واللبن . لن تنقلوا يدي من الماء الساخن إلى الماء البارد ، ستكون إحدى يديَّ في الزبدة والأخرى في العسل . . . . إذا قلت «هل» ستقدمون الدبس . ، إذا قلت «غك» ستقدمون عصير الفواكه . سأتفرغ أربعين يوماً من أجل الطعام . سآكل وأشرب وأقلب على جنبي وأنام حتى أصبح قوياً جداً وبعدئذٍ سأنقل الصخرة وأرميها بعيداً . وبعد ذلك سيصبح كل شيء سهلاً فأخلصكم من هذه الصخرة .

أيها الدرويش ، سننفذ كل ماتأمرنا به . يكفي أن تخلصنا من هذه الصخرة كي ترى قريتنا ضوء الشمس .

اجتمع أشراف القرية وشيوخها من أجل البحث والنقاش في هذا الأمر في مقهى القرية .

ذهب شاب يدعى علي إلى المقهى بعدما سمع اقتراح الدرويش . وكان والده في المقهى وحموه أيضاً ، قدم التحية وقال :

– ياكبارنا ، ياذوي اللحى البيضاء . ياأجدادي وأعمامي وأخوالي ، لديَّ ماأقوله لكم إذا سمحتم لي :

– تفضل ياولدنا علي .

– سمعت بمجيء درويش فقير جائع إلى قريتنا . وسمعت أيضاً بأن قال :

- «أطعموني أربعين يوماً، كي أنقل لكم هذه الصخرة من هنا في اليوم الأربعين».

- نعم هذا ماقاله ياولدنا علي.

- لاتصدقوه. إن كل ماقاله كذب وافتراء، ولن يستطيع أن يقلع هذه الصخرة وينقلها من هنا. إنه يخدعنا، لاتأمنوا لهذا الماكر الذي يبست معدته من الجوع.

رد عليه مختار القرية وإمامها:

- ياولدنا علي، إن عقلك لايستطيع استيعاب الأمور، أمن المعقول أن نخدع بهذه البساطة؟ لقد أخذنا كل الإحتياطات اللازمة.

- وكيف أخذتم الاحتياطات؟!

- سنضع الدرويش في غرفة ونقفل عليه، ونسدل ستائر النوافذ بشكل جيد، فإن قال الدرويش«ياحق» سنعطيه من النافذة لحماً مقلياً وعندما يقول «هق» نقدم له اللبن والدبس وفي اليوم الأربعين سنخرج الدرويش من معقله، فإن نقل هذه الصخرة كان خيراً، وأما!!! إذا لم ينقلها فإننا سنرميه من أعلى قمتها إلى الأسفل ونقضي عليه، لقد درسناها من كل الجهات أرح نفسك أنت ولاتشغل بالك. وعندما أدرك علي أنهم لن يصغوا إليه. ساح في الجبال من غضبه ولكن ماالذي كان يجري في بيت علي، لنرى ونسمع:

٣- دخيلك أيتها البنت الشقراء لاتتكلمي:

كان علي قد تزوج حديثاً. دخلت عروسه إلى الحظيرة كي تحلب البقرة، وضعت دلواً من النحاس تحت البقرة وبدأت بحلبها وهي تردد أغنية ما.

ثم وبدون أن تنتبه أسقطت على التبن دفقتين من ثدي البقرة فخافت كثيراً العروس الجديدة. وخاصة أنها تدرك بأن حماتها بخيلة جداً. وسوف تغضب إذا ماسمعت بأن عروس ابنها قد أبادت دفقتين، من الحليب دون فائدة. كانت أصابع العروس المطلية بالحناء ترتجف من الخوف. وكانت البقرة تدعى «البنت الشقراء».

ماذا سيحدث إذا قالت البنت الشقراء لحماتها .

خلعت العروس المطلية بالحناء مصاغها من رقبتها وعلقته برقبة البقرة وراحت تتوسل إليها قائلة :

- أرجوك أيتها البنت الشقراء، ياحبيبتي، خذي ، هذا المصاغ كله لك، ولكن لاتقولي لحماتي أنني سكبت دفقتين من الحليب على الأرض، لن تقولي أليس كذلك؟! .

قالت البقرة بإ يماءةٍ من رأسها :

- اطمئني وضعي رجليك ويديك في الماء البارد، فلن أقول لأحد أيتها العروس المطلية بالحنَّاء. وبينما تخشخش البقرة بالمصاغ المعلق برقبتها. دخلت حماة العروس إلى الحظيرة. فدهشت كثيراً عندما رأت كل هذا المصاغ يلمع في رقبة البقرة فصرخت :

- ماهذا ياعروووس؟!!!

فقالت العروس بأنها علقت هذا المصاغ برقبة البقرة «البنت الشقراء» كي لاتخبرها بأن العروس أسقطت دفقتي حليب على الأرض .

خافت الحماة أي خوف، إذ أن زوجها رجل بخيل للغاية، ولاشك بأنه سيقيم الدنيا ولن يقعدها إذا ماسمع بأنهم خسروا ضغطتين من الحليب دونما فائدة . فخلعت منديلاً من الحرير كان موضوعاً على رأسها ووضعته فوق رأس البنت الشقراء، بشكل أنيق وجميل وبعد ذلك قالت للبقرة :

- أرجوك أيتها البنت الشقراء، ياروحي، خذي منديلي الحرير وليكن لك ولكن لاتقولي لزوجي بأن عروسة ابننا قد أسقطت ضغطتين من الحليب على الأرض .

في هذه الأثناء، فُتح الباب ودخل الزوج، دهش كثيراً عندما رأى المصاغ وهو يخشخش في رقبة البقرة وعلى رأسها منديلٌ من الحرير فصرخ قائلاً:

- ماهذا؟!!.

شرحت له زوجته بأنهم زينوا البقرة كي لاتقول له بأن العروس قد أسقطت ضغطتين من الحليب على الأرض، فخاف الرجل كثيراً وقال:

- أيوا ااه. . . إن سمع ولدنا بذلك، لاشك سيطلق زوجته الجميلةالرائعة، التي تملك لساناً كما البلبل. فنزع ساعته الفضية من يده ووضعها بقائمة البقرة. وراح يتوسل قائلاً:

- أرجوك أيتها البنت الشقراء، ياروحي، لن تقولي لولدنا بأن زوجته قد سكبت دفقتين من الحليب على الأرض اليس كذلك؟!.

صارت الساعة تلمع بيد البقرة، وراح الذهب يخشخش في عنقها.

وفي هذه الأثناء دخل الجيران إلى الحظيرة. وهم أيضاً دهشوا لما رأوا زينة البقرة. ولكنهم زادوا زينتها عندما عرفوا لب المشكلة. فوضعوا على رآسها ماملكت أيديهم من الزينة، حبات اللؤلؤ، مرآة، بلاكات، أساور، نقود، لقد أعطوا كل هذه الأشياء للبنت الشقراء:

- نرجوك أيتها البنت الشقراء لاتقولي لعلي.

هزت البقرة رأسها:

- لن أقول.

وبينما كان الجميع يغنون ويعزفون ويضحكون ويلعبون تعبيراً عن فرحهم دخل علي من الباب. وقال:

- ماهذا؟

- دخيلك ياعلي، لقد سكبت عروسك الجديدة دفقتين من الحليب على الأرض فزينا البقرة وجمّلناها كي لاتقول لك. عندما سمع علي ذلك قال:

- أنا لن أمكث لحظة بين هؤلاء المجانين. بعضهم سيطعم الدرويش البندق والعنب، وبعضهم يضع كل هذا المصاغ وكل هذه المرايا على البقرة فحمل خرجه ونايه وخرج من قريته وهام في البراري والطرقات.

٤- مامصير رأس الثور؟

وضع علي خرجه على كتفه وأمسك نايه بإحدى يديه وفي الأخرى أمسك عصاه، ومشى دون أن يستريح ليلاً أونهاراً مشى ومشى ومشى. قطع سفوح الجبال صعوداً والسهول والغابات والوديان هبوطاً. . . تارة يعزف على نايه وتارة يستلقي في فيء وينام. وحيناً يتذكر قريته ويحن لزوجته ويتمنى رؤية والديه. فيحدِّث نفسه قائلاً:

- هل أعود إلى قريتي؟!

ثم يتابع سيره وهو يقول لنفسه:

- وماذا سأفعل بين أولئك المجانين؟!.

يسير ويسير، يتخيل زوجته وهي تحلب البقرة، وتتراءى له صورة أمه وهي تعجن من أجل الخبز، وترن بأذنيه أصوات أطفال قريته«قعر الصخرة المائلة» وهم يضربون بقبضاتهم على صدورهم وينادون: «أشرقي أيتها الشمس أشرقي كي تعطيني أمي خبزاً». ولكن لا. . . لن يعود إلى أولئك المجانين.

سار وسار وسار ثم نظر من أعلى قمة جبلٍ فرأى جمهرة من الناس في القرية التي في أسفل الوادي. فنزل من الجبل إلى القرية متسائلاً عما يحدث في القرية، ألقى التحية، ثم سأل:

- ماالذي يحدث ياأغوات؟ فأجابوا:

- دخل رأس الثور في الجرة، ولهذا قلقنا كثيراً.

- حسنٌ، وماذا ستفعلون؟!

- يوجد عندنا في هذه القرية رجل عاقل يدعى محمد أغا، كلما صادفتنا مشكلة في أعمالنا نذهب إليه ونستشيره.

فتشوق لإستقصاء الأمر ذهب خلف أهالي القرية، حتى وصلوا عند محمد أغا الذكي، فسألوه قائلين:

- لقد دخل رأس الثور في الجرة، كيف سنخرجه؟

فأوصاهم العاقل محمد أغا قائلاً:

- اقطعوا رأس الثور.

فحدَّث علي نفسه قائلاً: «إن أهالي هذه القرية مجانين أكثر من أهالي قريتنا» قطعوا رأس الثور ولكن الرأس لم يخرج من فم الجرة. فذهبوا إلى محمد أغا العاقل من جديد وقالوا:

- لقد قطعنا رأس الثور ولكنه بقي داخل الجرة. ماذا سنفعل الأن؟

فقال محمد أغا العاقل:

- إذاً، اكسروا الجرة.

وعندما كسروا الجرة وخرج رأس الثور المقطوع منها قالوا موجهين دعواتهم لمحمد أغا العاقل:

- الله يرضى عنك يامحمد أغا العاقل.

وبعد قليل جاء قروي آخر وهو يصرخ قائلاً:

- ياإلهي، لقد أدخل ثوري رأسه في الجرة كي يشرب، وبقي رأسه فيها ولم يستطع إخراجه.

فقال باقي القرويين:

- هيا لنذهب إلى محمد أغا العاقل ونسأله:

ولكن علي لم يستطيع الاحتمال أكثر من ذلك فقال:

- ياأخوان، أما ذهبتم منذ قليل إليه واستشرتموه؟!

فقالوا:

ليكن، فقد يعطينا رأياً آخر هذه المرة.

فقال علي:

- قفوا، لاتذهبوا، اسمعوا مني واكسروا الجرة قبل أن تقطعوا رأس الثور.

ففعلوا مثلما أشار عليهم علي، كسروا الجرة فخرج رأس الثور منها سليماً معافى، فركع أهالي القرية عند رجليه وراحوا يتوسلون إليه:

- ياإلهي... لم نرَ رجلاً برجاحة عقلك، يجب أن تبقى في هذه القرية، ولاتجعلنا نخسرك، ابق، لتصبح استاذنا في العقل ومرشدنا، كُلْ واشرب ماشئت ونم عندما تريد، يكفي أن تبقى بيننا لترشدنا برجاحة عقلك.

فقال علي وهو يخرج من القرية:

- مادمت لم أستطع العيش مع مجانين قريتي، فكيف سأقبل العيش بين مجانين أمثالكم، لن أبقى أبداً أبداً أبداً.

٥- أقول لها «تشو» لاتمشي وأقول لها«هش» فلاتقف:

سار علي كثيراً ورأى أشياء كثيرة... قطع الأنهر والسواقي. قطع الجبال والسهول والوديان. وتنقل بين القرى. وبين الحين والآخر كان يتراءى أمام عينيه منظر زوجته وهي تحلب البقر، ويتخيل أمه وهي تضع عجينها في المعجن الكبير وتكبسه بظاهر يديها. وترن في أذنيه صرخات أطفال قرية قعر الصخرة المائلة وهم يضربون بقبضاتهم على صدورهم ويصرخون: «أشرقي ياشمسي أشرقي، أشرقي كي تعطيني أمي رغيف خبز».

لا... مستحيل... لن يعود إلى أولئك المجانين.

وبعد مسير طويل وصل إلى ساحة إحدى القرى. كان بعض الرجال مجتمعين حول حمار يحاولون فعل شيء ما. دخل بينهم مستفسراً عما يجري. نظر إليهم فإذا به يرى كيساً كبيراً ويرى الرجال مجتمعين حوله محاولين وضعه على

ظهر الحمار، يضعون الكيس في إحدى الجهتين من ظهر الحمار فيقع نظراً لعدم وجود ثقل مساوٍ في الجهة المقابلة. فيجربون وضع الكيس في الجهة الأخرى ولكنه وفي هذه التجربة يسقط على الأرض أيضاً. وبعد محاولات عديدة. قالوا:

- هيا لنذهب إلى محمد آغا العاقل ونستشيره.

فلحق علي يهم متسائلاً من جديد: معنى هذا أن لهذه القرية أيضاً عاقلها محمد أغا أليس كذلك؟.

فرد القرويون علي سؤال علي قائلين:

- لايمكن أن تخلو قرية من رجل عاقل يدعى محمد أغا.

أشار محمد أغا العاقل عليهم قائلاً:

- اجمعوا أحجاراً مساوية من حيث الثقل للكيس وضعوها في كيس كبيرٍ، وبعد ذلك ضعوا كيس الطحين في جهة من ظهر الحمار وفي الجهة الأخرى ستضعون كيس الحجارة.

فعلوا بما أشار به عليهم. ولما لم يقع الكيس من فوق ظهور الحمار قال أهالي القرية بفرحٍ:

- لايوجد أعقل من محمد أغا على سطح الأرض.

ولكن الحمار لم يعد بإستطاعته السير تحت هذا الثقل الذي على ظهره، فضربوه وأكثروا ضربه:

- د ي ي ي . . ه . . . تشو و و و . . . ديـيـيـ . . ـه . . .

أنزل صاحب الحمار على ظهر حماره عصا غليظة وهو يقول:

- أقول له ديه. . لايمشي وأقول له تشو لايمشي وأقول له هش فلايقف. . . ماهذا الحمار الذي ابتليت به؟!.

ولم يحتمل علي أكثر من ذلك. فتدخل قائلاً:

- قفوا لحظة.

ثم أشار عليهم بتفريغ كيس الحجارة ثم قسم كيس الطحين إلى قسمين متساويين وعبأ كل قسم في كيس مستقل، وبعد ذلك وضع الكيسين كلاً منهما على جهة من ظهر الحمار. ولما توازن الثقلان مشى الحمار براحة تامة.

فلما رأى أهالي القرية ماجرى دهشوا كثيراً وتوسلوا لعلي قائلين:

- ياااا إلهي.. لم نر في حياتنا رجلاً بذكائك... ابق في قريتنا، واطلب ماشئت، سيلبى، ليس مطلوباً منك أي شيء سوى أن تبقى بيننا وتعطينا النصيحة...

فقال علي وهو يغادر القرية:

- إنْ لم أحتمل العيش مع مجانين قريتي فكيف أحتمل بقائي بين مجانين مثلكم؟

٦- أنزل البقرة وارفع العشب.

تمزق خف علي من كثرة المشي على الطرقات، فقد كان يمشي ليل نهار ثم وصل إلى احدى القرى، نظر ورأى، ماذا رأى؟ رأى رجال القرية وقد اجتمعوا في الساحة. ورأى ربطة عشب قد علقت في مكان عالٍ ووضعت تحتها بقرة ويحاول الجميع رفع البقرة نحو العشب، فسألهم علي:

- ماذا تفعلون؟

- ألاترى؟ إننا نقدم العشب للبقرة ولكنها لاتريد أن تأكل.

- ولكن البقرة لن تستطيع أن تأكل بهذه الطريقة.

- وكيف تأكل إذاً؟

- لِمَ لاتضعوا العشب في الأسفل ليصبح قريباً من فم البقرة بدلاً من رفعها إليه.

لما فعل القريون ماقاله علي راحت البقرة تأكل بشهية، قال القرويون بدهشة:

- ياإلهي . . . نحن لم نَر في حياتنا رجلاً بذكائك . ابقَ في قريتنا ، سنطعمك العسل ولانريد منك سوى البقاء بيننا .

فغادرهم وهو يقول :

- ليس لي أي عمل بين مجانين مثلكم ، أنا لم أحتمل العيش بين مجانين قريتي .

٧ ـ ضعوا الحصان أمام العربة:

مشى تحت المطر وتحت الشمس ، مشى كثيراً ، عانى من التعب والإرهاق حن لقريته . إن القرية ومناظرها ماثلة أمام عينيه لاتريد مفارقته تراءى له منظر أمه وهي تعجن في المعجن الكبير وزوجته وهي تحلب البقرة تمثل أمام ناظريه منظر الأطفال في قرية قعر الصخرة المائلة وهم يضربون على صدورهم ويتوسلون قائلين : أشرقي ياشمسي أشرقي . ولكنه قرر أن يتحمل كل الصعاب وأن لايعود إلى أولئك المجانين .

مشى ومشى ثم وصل إلى قرية نظر فإذا به يرى مجموعة من الناس وقد اجتمعوا ويحاولون فعل شيء ما ، نظر مرة أخرى فرأى حصاناً وقد ربط بمؤخرة عربة ، ورأى بعض الرجال يضربونه بالسوط ولكن العربة لاتتحرك . فدهش القرويون لما يحدث وصاروا ينظرون إلى بعضهم ويتساءلون :

- ولك ... لم لاتتحرك هذه العربة؟!

لم يحتمل علي الموقف فقال لهم :

- ولك . . حرام عليكم ، لِمَ تضربون هذا الحصان المسكين بالسوط دون أي سبب؟ لن تمشي العربة بهذه الطريقة .

- حسناً ، وكيف ستمشي إذاً؟

- لِمَ لاتربطون الحصان بمقدمة العربة بدلاً من مؤخرتها؟!

ولما ربطوا الحصان من الأمام مشى وجر العربة وراءه، ركع القرويون وقبلوا يدَيْ ورجلَيْ علي وهم يقولون:

- ياإلهي... إننا نرجوك ألاّ تغادر قريتنا... ابق بيننا وأعطنا النصيحة، إن قبلت أن تبقى بيننا وتنصحنا فستكون كل أوامرك مستجابة.

فغادرهم علي وهو يقول:

- إن لم أصبر على مجانين قريتي، فماذا سأفعل بين مجانين مثلكم يريدون قيادة العربة من الخلف؟

٨- كيف يُلبَسُ السروالُ إذاً؟:

مشى علي كثيراً، قطع السواقي والأنهر وصعد الجبال وهبط الوديان، ولكن حنينه إلى قريته كاد يقضي عليه ويفقده صوابه. هل يعود؟!

أمه... زوجته... أولئك الأطفال وصراخهم... «أشرقي ياشمسي أشرقي» عزف على نايه، ثم استراح قليلاً ومشى من جديد متابعاً مسيره في الطرق المغبَّرة قاطعاً التلال الخضراء.. وبعد سير طويل وصل إلى إحدى القرى، الرجال مجتمعون يحاولون فعل شيءٍ ما، دخل بينهم لمعرفة سبب اجتماعهم. صعد أحد الرجال إلى سطح بيت من البيوت بينما وقف رجلان في الأسفل وهما يمسكان بأيديهما سروالاً مفتوحاً من الأعلى، ويفتحان فردتيه ويناديان على الشاب الذي على السطح:

- هيا اقفز.

رمى الشاب الذي على السطح نفسه فوقع على الأرض وجرح رأسه وعام على بركة من الدم.

فقالوا:

- لم يستطع إدخال رجليه في السروال، هيا لنجرب مرةً أخرى، فصعد الشاب المضرَّج بدمائه على السطح من جديد.

فلم يحتمل علي هذا المنظر، فسألهم قائلاً:

- ماذا ستفعلون الآن؟

- كما ترى، إننا نساعد هذا الشاب الذي يريد أن يلبس سروالاً لأول مرة.

- وهل تلبسون السروال بهذه الطريقة في قريتكم؟!

- طبعاً، هكذا نلبسه، وهل من طريقة أخرى لنلبسهُ بها؟ يرمي الرجل نفسه من أعلى السطح، فإن جاء في السروال كان خيراً وإلاّ فسيقع على الأرض ويجرح رأسه أو عينيه وقد يموت أشخاص في شرف ارتداء السروال.

- قفوا، لاتفعلوا... فالسروال لايلبس بهذه الطريقة.

أنزل علي الشاب من فوق السطح، وبيَّن له كيف يلبس السروال.

دهش القرويون كثيراً عندماراأوا ذلك. وقالوا:

- نحن لم نَر رجلاً أذكى منك في حياتنا، إننا نرجوك أن تبقى بيننا وستكون كل أوامرك مستجابة.

فقال علي وهو يغادر القرية:

- لم أستطع الإقامة بين مجانين قريتي، فماذا سأفعل بين مجانين مثلكم؟

٩- هل هذا غراب أم صخرة؟.

مازالت قرية قعر الصخرة المائلة ماثلةً أمام عينَيْ علي. ومازالت أمه تتراءى له وهي تعجن دقيقها في المعجن الكبير، وزوجته في الحظيرة تحلب البقرة. ومازالت أصوات الأطفال ترنّ في أذنيه، وهم يجلسون في قعر الصخرة ويضربون على صدورهم وينادون الشمس «أشرقي ياشمسي أشرقي كي تطعمني أمي خبزاً».

لقد تعب علي كثيراً واحترق تحت الشمس وتقمرّ جلده، وابتل تحت المطر، وبعد برهة سمع أصواتاً أشبه ماتكون بضجيج المعركة. نظر من قمة التلة التي وصل

إليها، إلى الأسفل فرأى أهالي قريتين متجاورتين وقد اشتبكوا فيما بينهم واشتدت المعركة وتصاعد لهيبها إلى السماء. لقد اشترك في هذه المعركة الرجال والنساء والأطفال بالسكاكين والعصي والحجارة كما كانت المسدسات تطلق العيارات النارية. ركض علي من فوق التلة ودخل بين المقاتلين، وصرخ قائلاً:

– قفوا... لاتتقاتلوا... مالذي تقتتلون من أجله؟

وقفت المعركة بعد أن سمعوا صراخه وشرح له أحد المتعاركين قائلاً:

– في قديم الزمان، وعندما كان والد جد أبي على قيد الحياة. كانت هاتان القريتان تشكلان قرية واحدة. وكان في هذه القرية صديقان الأول يدعى أحمد والآخر يدعى محمد.

– أين هم الآن؟

– إيـ ـهـ يـ يـ... ـه ـه... هذا الكلام قد حدث منذ أمد بعيد، لقد مضى على موتهما زمن طويل. ولاأظن أنه قد بقي من عظامهما أي أثر تحت التراب. وبينما كان أحمد ومحمد جالسين على سفح الجبل، قال أحمد: «انظر إلى هذا الغراب الأسود الذي يقف فوق الصخرة». نظر محمد وقال: «لا.. لا.. هذا ليس غراباً أسود» فسأله أحمد: «ومايكون إذاً؟!». فأجابه محمد قائلاً: «هذا ليس غراباً أسود بل صخرة سوداء ولكنه خيِّل لك بأنه غرابٌ أسودٌ». إنه غراب، لابل صخرة سوداء. وهكذا دخلا في الرهان فألقيا حجراً بإتجاه موضع الرهان. فقال أحمد: «انظر هاقد طار، معنى ذلك أنه غرابٌ». فقال محمد: «لالم يطر وهذا يدل على أنها صخرة». إنه غراب.. لابل إنها صخرة. ونشب العراك بينهما ولما سمع أهالي قريتنا أصوات العراك اجتمعوا عندهما. وبذلك انقسم أهالي قريتنا إلى فئتين، فئة تقول إنه غراب وفئة تقول إنهُ صخرة سوداء. ونشب العراك بين الفئتين وجُرح الناس، ولهذا السبب انقسمت قريتنا إلى قسمين، الأولى سُمِّت قرية

الصخرة السوداء والقرية الثانية سُمِّيت قرية الغراب .

- حسناً ، والآن ماسبب هذه المعركة؟!

- منذ ذاك الزمن وحتى وقتنا الحاضر كلما اجتمع شخص من هذه القرية مع شخص من تلك القرية يقول الأول : إن الذي رآه والد جد أبي كان غراباً .

فيقول الثاني : إن ماتقوله كذب وافتراء . لأن الذي كان فوق الصخرة صخرة سوداء وليس غراباً . وبذلك يشتبكان ويبدأان العراك ، كل سنتين أوثلاث سنوات تحصل مثل هذه المعركة .

فقال علي :

- ألايمكن أن تعيشوا بلا قتال؟

- كيف ذلك ، وهم لم يقتنعوا بعد بأن الذي كان فوق الصخرة غراباً وليس صخرة سوداء .

فقال القسم الآخر من المتقاتلين :

- بل كانت صخرة سوداء وأنتم الذين قلتم بأنه غراب .

فقال علي :

- تعالوا لنجد حلاً وسطاً بينكما ، وبذلك ننهي هذا القتال .

- وكيف ذلك؟! .

- لنقل أنها لم تكن صخرة سوداء ولم يكن غراباً أسود ، ولتتحدوا في قرية واحدة كما كنتم فيما مضى .

- جيد ، ولكن قريتنا تدعى الصخرة السوداء وقريتهم تدعى الغراب الأسود .

- سنطلق على القرية المتحدة اسم صخرة الغراب، لأن هذا الإسم مشترك بين القريتين. وننهي هذه المشكلة.

ركع أهالي القريتين فرحين بهذا الاقتراح على رجلي علي وهم يتوسلون قائلين:

- ياإلهي... نحن لم نرَ رجلاً بذكائك، سنوحِّد القريتين وستبقى أنت على رأسنا. وستكون كل طلباتك مستجابة مقابل بقائك بيننا وإعطاؤك النصيحة فقال علي وهو يغادر القرية:

- وماذا سأفعل بين مجانين مثلكم؟!

١٠- الباب لايتسع للعروس:

لقد اشتاق علي كثيراً لأبيه ولأمه ولقريته. يتراءى الوصال أمام عينيه، أمه تعجن في المعجن وزوجته تحلب البقرة الشقراء، ويسمع صراخ أطفال قرية قعر الصخرة المائلة وهم ينادون «أشرقي ياشمسي أشرقي، أشرقي كي يعطيني أبي وأمي رغيف خبز».

جلس علي تحت ظل شجرة ليستريح من السير الطويل. بينما كان علي يعزف ألحاناً حزينة على نايه. سمع أصوات فرح وهرج ومرج، ياإلهي، يالها من موسيقى راقصة. انتصب ونظر فبانت عليه القرية. وعندما سار بإتجاه القرية تبين له أن ماسمعه كان أصوات عرس وفرح، فالطبال يطبل والمزمار يعزف والرجال يطلقون العيارات النارية بإتجاه السحب، إنه أمام حفلة عرس، وهاهي العروس تركب على الحصان متجهة إلى بيتها. لقد عقدت حلقات الدبكة. بين صرخات الرجال وفرحهم.

قال علي الذي شعر بفرح ما: «الحمد لله، هاقد وصلت أخيراً إلى قرية أصحابها من الناس الأذكياء، أليس كذلك؟». راقب العروس وهو متجه إلى البيت

الذي يقام الاحتفال فيه . كان الرجال يحاولون إدخال العروس التي على ظهر الحصان من باب الحديقة ، ولكنهم اتبعوا كل الطرق ولم يستطيعوا إدخالها .

قال أحدهم :

- ماذا سنفعل؟ هل نقص أرجل الحصان كي نستطيع إدخال ا لعروس من الباب .

قال آخر :

- حرام علينا أن نقص أرجل الحصان ، مارأيكم لونكسر عتبة الباب؟

فقال ثالث :

- أعتقد أنه من الخطأ كسر عتبة الباب والأفضل هو قص رأس العروس .

أعجبوا بهذا الإقتراح ، وكادوا أن يقطعوا رأس العروس لولا أن علي ضاق ذرعاً بهم فتدخل قائلاً :

- انتظروا لحظة .

فقالوا لعلي :

- وماذا سننتظر ، هل نترك العروس في الخارج؟!

- انتظروا ، أنا سأُدخِل العروس إلى البيت .

ومـاإن أنزل لكمة قوية على رأس العروس حتى انحنت من ألمها ، فدخلت ودخل الحصان من الباب .

فقال الأهالي لعلي :

- ياإلهي . . أي عقل تملك؟ إن بقيت في قريتنا سنعطيك ماشئت مقابل أن تقدم لنا النصيحة فقط .

فقال علي وهو يغادر القرية :

- مادمت لم أستطع العيش بين مجانيني ، فلن أحاول معكم أنتم .

١١- مجانين قريتي أفضل:

قطع علي أمله وحدَّث نفسه قائلاً: « يجب أن أعود إلى قريتي فما عدت أستطيع مقاومة شوقي وحنيني.

عاد من نفس الطريق التي أتى منها، ثم وصل إلى قرية قعر الصخرة المائلة. فرأى أطفالها يقفون على أرجلهم فرحين أيما فرح فسألهم قائلاً:

- هل هذا طقس جديد من طقوس جنونكم ياأبناء قريتي؟!

فأجاب شيخ من قريته:

- لقد أتم الدرويش يومه الأربعين في عزلته الغذائية، والآن سنخرجه من غرفة الطعام، سيزيح الدرويش الصخرة العملاقة المسلطة فوق رؤوسنا كالمصيبة. وينقلها من هنا.

معنى هذا أنه قد مضى أربعون يوماً على مغادرتة علي لقريته.

تَبِعَ أهالي قريته وأخرجوا الدرويش من غرفته. لقد سمن الدرويش النحيل وأصبح بديناً جداً بسبب الحياة الرغيدة التي عاشها خلال أربعين يوماً، البندق والعنب والعسل وغيرها.

هاقد وصلوا إلى قعر الصخرة المائلة، الدرويش في المقدمة وجميع أهالي القرية يتبعونه.

قال الدرويش:

- الأن سأنقل هذه الصخرة الضخمة وأرميها بعيداً من هنا. ولكني أريد شيئاً لأضعه على كتفي من أجل حملها.

ركض أهالي القرية وأحضروا له «جلالة» ثم وضعها على ظهره وجلس القرفصاء مسنداً ظهره على الصخرة ثم قال:

- هيا حمّلوني هذه الصخرة كي أضعها على كتفي وأنقلها من هنا.

دهش المختار، ودهش إمام القرية ودهش أهالي القرية جميعهم، فقال الدرويش :

- هيا، ماذا تنتظرون، هيا َحمِّلوني هذه الصخرة بدل من أن تنظروا إلى بعضكم، هيا ضعوها على كتفي كي أنقلها من هنا، وأما إذا كنتم لاتستطيعون وضعها على ظهري فلن يكون بمقدوري حملها وبالتالي نقلها من هنا.

قال الفلاحون وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم :

- صحيح ولا!!!! . . . والله معه حق، كيف لهذا الرجل أن ينقل هذه الصخرة الضخمة إذا لم نستطع وضعها على ظهره؟!

حاولوا . . . ثم حاولوا من جديد ولكن أنّى لهم أن يزحزحوا الصخرة من مكانها قيد شعرة أوأن يضعوها على ظهر الدرويش.

انسحب الدرويش الذي أنقذ نفسه من الموت بينهم وهو يقول :

- ياالله. . . . استودعكم الله.

وذهب.

وأما بالنسبة لعلي فقد ذهب إلى البيت كي يرى أمه وأباه. ، ولكنه ماذا رأى؟! لقد ملأوا الغرفة ماءً وعملوا بركة، وجلس والده ووالدته وزوجته والبنت الشقراء المزينة والمشنشلة بالذهب، في المعجن الذي يطفو على سطح الماء ويسبح في كل الإتجاهات.

قال والده :

- آه ياولدي، لقد ضعتَ أليس كذلك؟ إننا ومنذ اليوم الأول لضياعك وحتى الآن ونحن نجلس في المِعجن ونبحث عنك.

فابتسم علي وقال : «مهما يكن فإنني أفضّل مجانيني على المجانين الأخرين.»

كانت تُسمع صرخات أطفال قرية قعر الصخرة المائلة وهم يضربون على صدورهم بقبضات أيديهم :

- أشرقي ياشمسي أشرقي، أشرقي كي تطعمني أمي خبزاً.

وكان يسمع من بعيد نواح الأمهات .

خرج علي وصرخ بأعلى صوته قائلاً :

- ليجتمع الجميع في الساحة .

وبعد قليل كان أهالي قرية قعر الصخرة المائلة قد اجتمعوا في الساحة، من الطفل ذي السبعة أعوام إلى الشيخ ذي السبعين .

قال علي لهم :

- ياأبناء قريتي، أنا سأخلصكم من مصيبة هذه الصخرة العملاقة .

قال إمام الجامع :

- ياولدي، إن كان الخضر عليه السلام لم يستطع تخليصنا منها، فكيف لواحد مثلك أن يخلصنا منها .

وقال المختار :

- يابني، إن نقل هذه الصخرة العملاقة عمل مستحيل .

فقال علي :

- ياأعمامي ، وياأخوالي، ياأغاوات، إن نقل الصخرة، فعلاً، عمل مستحيل ولكن من السهل نقل القرية، سنبني بيوتنا في الجهة الأخرى من الصخرة العملاقة .

وبينما علي ينتظر منهم أن يقولوا له : « ياإلهي ماهذا الذكاء وهذا العقل الراجح اللذان تملكهما، إننا نرجوك أن لاتذهب إلى أي مكان، ابق بيننا وقدم لنا

النصيحة»، ضحك عليه جميع أهالي القرية دون استثناء، نساؤها ورجالها وأطفالها. . . قهقهوا وقهقهوا. . . وتحولت قهقهاتهم إلى طلقات موجهة صوبه، فخارت قواه وماعادت رجلاه قادرتان على حمله حتى كاد أن يقع. فاقترب والده منه وقال:

- لاتجُن ياولدي، أيمكن أن ننقل كل هذه البيوت إلى السفح الأخر؟!.

فقال علي:

- إن كنتم لاتستطيعون نقل البيت فلم تفكرون بنقل هذه الصخرة العملاقة؟

ثم غضب علي كثيراً وصرخ قائلاً:

- أنا سأنقل بيتي، ومن يريد فليتبعني.

بصق على قبضة الفأس وبدأ بهدم بيته.

كان كلما مرَّ بجانبه أحد الأشخاص يضحك بسخرية ويقول:

- ولك. . . انظروا. . . كان ينقص قريتنا مجنون واحد وبعودة هذا اكتملت والحمد لله.

هدم علي بيته، وبنى من جديد بيتاً جميلاً في الجهة الأخرى من الصخرة العملاقة حيث الشمس الساطعة المشعة، يومها أشرقت الشمس في ساعات الصباح الباكرة. ولكنه مازال يسمع استغاثات الأطفال وهم ينادون الشمس ويضربون صدورهم بقبضات أيديهم، لقد دمعت عينا علي عندما كان يقف تحت أشعة الشمس أمام باب بيته حزناً على هؤلاء الأطفال.

ذهب إلى الجهة الأخرى من الصخرة وقال للأطفال الذين يصرخون قائلين: «أشرقي ياشمسي أشرقي».

- هيـ يـ يـ يـــــه ـه ـه. . لقد أشرقت الشمس منذ زمن، تعالوا وانظروا في هذه الجهة.

صعد الأطفال إلى الأعلى، وعندما وصلوا إلى الجهة الأخرى رأوا الشمس وهي ترسل أشعتها ويعم دفؤها على تلك الجهة. ضحكوا وفرحوا كثيراً. فأعطت زوجة علي قطعة من الخبز لكل طفل.

– عمي علي، هل هذا البيت لك؟!

– طبعاً. . . .، إن هذا البيت لي، هيا اركضوا واهدموا بيوتكم . . هيا ركض الأطفال بسرعة فائقة، منهم من أمسك بمطرقة ومنهم من أمسك بفأس أورفش وبدأوا بهدم بيوتهم حتى اختفت القرية تحت غمامة من الدخان والغبار، وكانت الأمهات يصرخن، من بين البيوت المهدمة:

– أي خبز تريدون الآن، الشمس لم تشرق بعد.

سقطت أسطحة المنازل، وهدمت الجدران، وأما الأطفال فقد علَت ضحكاتهم وهم ينظرون إلى كبارهم الذين مازالوا نائمين على أسرتهم بين الجدران المهدمة.

وراح الأطفال ينقلون أجزاء من البيوت التي تهدمت إلى الجهة الأخرى وبعد ذلك أُجبر الكبار على الإشتراك مع أطفالهم.

كانت البيوت تشاد بسرعة في الجهة المُشمسة وراحوا يضربون على طبولهم ويعزفون على مزاميرهم، بينما كان علي يراقبهم من أعلى القمة بفرح وهو يقول:

– مهما حصل، فإن لمجانين قريتنا طعماً آخر، فهم على الأقل مجانيننا، وامتلأت عيناه بالدموع.

* * *

كونشرتو البكاء من أجل امرأة حبلى

إلى مزهر ڤانو . . .

uvertur مقدمة موسيقية:

إن كـان في هذه الـدنيـا ثلاث مـدن جـميلة ، فـإن اسـتـانبـول أجـملهـا على الإطلاق .

استانبول ، تلك المدينة التي أعشق عينيها ، قرة عيني . . . روحي استانبول .

إن كان في استانبول ثلاثة أمكنة جميلة فإن أجمل تلك الأمكنة هو الشاطىء الواقع بين كـالاميش وفنار بهجـة ، بروعة هوائه ، وحُسن نسائه ، وأناقة شبـابه ، تضيء أشعة الشمس الدافئة نهاراته ، وينير القمر الجميل لياليه . . . يوجد على هذا الشـاطىء ، أجمل شـاليـه في اسـتـانبـول : من الخـارج مرمـر ، وأحـجـاره مزخـرفة ومحفورة . ومن الداخل مزين بالتماثيل ذات المظاهر الخالية من الذوق الرفيع والتي أحضرها الثـراء إلى هنا ، . . . . كـمـا أن النظرات المتعبة تستريح في حـدائقه التي يعتنون بهـا باستمرار ، وأما الناظر إلى المكان الذي تقف فيه السيارات فإنه يشعر بإنسـحـاق إنسانيـتـه . وبعض الناس يخـجلون من أنفسـهـم حين يمرون من الطريق الواقع بين شاطىء البحر وتلك الشاليهات .

وفي شـهـر أذار ، تـتـفـتـح أزهار الربيـع ، والورود واليـاسـمين والفـل ، وتغطي أغصان شجرات الورد حشرات ضارة تتطاير فوق البراعم والبستاني يرش المبيدات والأدوية من أجل حماية الورود من الحشرات الضارة ، وللشاليهات أيضاً حشراتها الخاصة بها ، إنها أبنية المخالفات التي تختبيء خلف الشاليهات .

يقطن في أحد أبنية المخالفات تلك عائلة مؤلفة من زوج وزوجته وثلاثة أطفال جاؤوا من قرية تابعة لمنطقة تابعة لمدينة من مدن الشرق واستوطنوا هنا الزوج يدعى اسحاق والزوجة تدعى إمرية .

يعمل اسحق اجيراً عند بستاني في إحدى الشاليهات، وإمرية تعمل خادمة في شاليه آخر، وبعد مدة من الزمن كرهت امرية عملها كخادمة فاشتغلت مياومة[1]، كل يوم تذهب إلى شالية مختلف وتخدم فيه لمدة يوم واحد وبهذه الطريقة تكسب نقوداً أكثر .

١ – القسم الأول: (لماذا تضحك إمرية؟)

إمرية امرأة شابة تحب الضحك كثيراً، وجهها يضّحك، عيناها تضحكان، بؤبؤا عينيها يضحكان، شعرها يضحك، كعب رجلها، يديها. حتى أطراف أصابعها . . . كل شيء فيها يضحك .

بعد أن اشتغل اسحق وإمرية وكسبا نقوداً، خرجا من بيت المخالفات الذي كانا ضيوفاً فيه واستأجرا بيت مخالفات أخر .

عندما تشرق الشمس تنهض إمرية ضاحكة من سريرها، تطعم زوجها وأولادها وتشربهم وهي تضحك وتبتسم، ثيابها تضحك وهي تخرج من بيتها باكراً، ترن جرس الشاليه الذي ستنظف غسيله هذا اليوم، ويداها تضحكان، يالها من شغالة تضحك بإستمرار، تخرج وتدخل، تمسح وتكنس، تجمع أشياء المكان، تغسل الثياب وتكويها ولكن ضحكتها لاتغيب أبداً. يداها اللتان تغسلان الثياب تضحكان بإستمرار، إذا مانظرت فإن نظراتها تضحك، وكلامها يضحك إذا ماتكلمت .

إمرية، إمرأة ممتلئة، قوية، حيوية، معافاة وبنيتها سليمة .

تذهب إمرية إلى بيت سيدة/ ولكنها ليست من سيدات الشاليهات. إذ أنها

---

(١)- مياومة:

تقطن في ملحق إحدى البنايات/ من أجل تنظيف بيتها وغسل الثياب، إن إمرية تحب هذه السيدة أكثر من كل السيدات اللائي تعمل عندهن. لأنها أكثر إنسانية من الجميع فهي تجلس معها وتحادثها وتفضي إليها بهمومها. تحبها أكثر رغم أنها تعطيها نقوداً أقل بكثير مما تأخذه من السيدات الأخريات. كانت هذه السيدة تنظر إلى إمرية وإلى ضحكات كتفيها ويديها ورجليها بإعجاب شديد وتقول:

- ولك إمرية... إني أموت فيك يابنت، هل تضحين هكذا بإستمرار؟

- مذ جئت إلى استانبول وأنا أضحك، ولِمَ لاأضحك ياستي.... لوعلمت كم قاسيت في قريتي لوجدت بأني أضحك أقل بكثير مما يجب... تشرح لها... ثم تشرح ... آه يالتلك القرية... انظري إلى يديّ.... هل تريهما... لقد تجرحتا وتشققتا من عجن روث البقر وتجفيفه.. وأما الآن فإنني أضعهما في الماء الساخن. الذي تفوح منه رائحة تنعش القلوب.... يداها تضحكان «وهل تظنين بأنه يوجد صابون في القرية ياستي؟». في القرية أنت عبدة لحماتك وجارية لحماك، وأماهنا فإنك سيدة في بيتك. «لورأيت قريتنا ياستي، لأدركت بأن الحياة لاتطاق فيها». إن بيوت القرية بلانوافذ، وترين الوجوه مسوّدة من دخان الزبل الذي في الموقد ومن رائحته، وماأن يأتي المساء حتى يكون المرء قد أُرهق لدرجة الموت من كثرة العمل فلايصدق أن يصل إلى السرير فيأخذه منبطحاً... حتى الزوج لايعرف ماذا فعلت زوجته، ولايعرف كيف حبلت، فجأة ينظر إليها فيرى بطنها قد كبر وتضخم« ياستي ليس للقرية أي طعم». يستمر الشتاء هناك سبعة أشهر، يذهب المرء إلى الجبال فيعشب ويحضر معه مااستطاع من الأعشاب. فيطبخهاويأكلها. هل تستمر الحياة هنا بهذه الطريقة؟ في بيوت الأغنياء.. مايريدون أكله يضعونه أمامهم، ومالايريدون أكله، خلفهم، يأكلون ويشربون مااستطاعوا وأما الذي يزيد عنهم فإنهم يعطونه لغيرهم. فنأخذه إلى البيت. يقولون في قريتنا: « إن الذبابة الذكية التي تحط على المِصران تهاجر إلى

المدينة فوراً». هل يوجد أجمل من الحياة في المدينة، خاصة عندما تكونين في استانبول، إن الأشياء القديمة التي يعطوننا إياها سكان الشاليهات أجمل من الجديد الذي نحضره نحن. وبعد كل هذا ياستي تريدينني ألا أضحك ! بلى. سأضحك وأضحك وأمرح. . . . .

٢- القسم الثاني(لماذا تنجب إمرية؟):

إمرية التي حضرت إلى استانبول بثلاثة أطفال أصبحوا أربعة وبعد مرور سنة واحدة أصبحوا خمسة أطفال.

قالت السيدة التي تحبها إمرية كثيراً:

- ولك ياإمرية، يكفي إنجاباً. كيف ستعتنون بكل هؤلاء الأطفال؟

- ياستي، إنني أحبل لأننا سنبني بيت مخالفات لنا، ولن أحبل أبداً بعد أن نبني بيت مخالفات خاص بنا، لنأوي تحت سقفه.

وفي السنة التالية أنجبت إمرية ولدها السادس:

- ولك ياإمرية . . . . كفى. . . لاتحبلي بعد الآن . . . هل أنت مجنونة. . . كيف ستتمكنون من تربية كل هؤلاء الأطفال؟

- ياستي، لن أتوقف عن الإنجاب حتى يصبح لدينا بيت مخالفات يأوينا أنجبت إمرية ولدها الثامن، كل سنة تنجب طفلاً، وسبب ذلك أنها لاتستطيع أن تنجب أكثر من طفلٍ واحدٍ في العام.

- يكفي إنجاباً يابنت. يكفي، كيف ستؤمّنون معيشة كل هؤلاء الأطفال؟!.

- عندما يصبح لدينا بيت مخالفات لن أنجب أبداً ياستي، بيت مخالفات ملك لنا، وخاص بنا، من مالنا الخاص، . . . كي نضع رأسنا تحت سقف نملكه نحن.

أنجبت إمرية ولدها التاسع، وعندما تحبل إمرية، يضحك بطنها وصدرها أيضاً يضحك . . .

اه ياستي، لونبني بيت مخالفات . . . لونبنيه . . . . لم يبق سوى القليل ياستي . . . إذا حبلت مرة أخرى فقط سيكون بإستطاعتنا بناءه.

٣- القسم الثالث (إحدى يدي إمرية في السمن والأخرى في العسل):

بعد أن أنجبت إمرية ولدها الرابع توقفت عن الذهاب إلى الشاليهات من أجل تنظيف الثياب والخدمة، ولم تكن إمرية تنجب كل هؤلاء الأولاد من أجل نفسها، بل كانت تنجب من أجل إرضاع أطفال الزوجات الجدد اللاتي يسكنّ في الشاليهات، فقد كان الحليب يدرّ من ثدييها بغزارة حالما تلد طفلها وأي غزارة. . . ماأن تضع إصبعك على ثديها حتى يتدفق الحليب منه بغزارة . . .

كانت إمرية ترضع أطفال الأمهات، اللاتي نشف الحليب في صدورهن، وهي تضحك. لقد صارت مرضعة، فثديا إمرية يضحكان وحليبها يضحك أيضاً. ماأن تنجب واحدة من الأمهات ذوات الصدر الخشبي ويمر أسبوع أوشهر حتى يجف صدرها. وبما أن حليب البقر أوالغنم أوالماعز أوالحليب المجفف أوالطعام الأوربي لن يحل محل حليب الأم، وبما أن صدر إمرية يحوي كميات كبيرة من الحليب لدرجة أنها كانت تستطيع أن ترضع عشرين طفلاً في وقت واحد - بل ويزيد حليبها عنهم وكي يصبح حليبها أقوى وأغزر، ولكي لايجف أبداً، يجب الإعتناء بغذاء إمرية، هيا غذوا إمرية . . . إمرية تغذي نفسها . . .

- أنا مسرورة جداً ياستي . . . إنني أغذي نفسي أفضل تغذية، أطلب سمناً فيأتيني، أطلب عسلاً فيأتيني . . . لاأنقل يدي من الماء الحار إلى الماء البارد، أقول أريد لحماً فيسألون قائلين «دخيلك . . . أين أنتِ؟» هل تريدين اللحمة كاسكالوب أم مايونيز أم تريدينها شرائح عجل، مارأيك بـ سيكاب أم تفضلين البريزولا أم روزابيلا.

جمعت إمرية النقود التي كانت تأخذها لقاء عملها كمرضعة، لم يبق سوى القليل ويبنون بيت المخالفات، وعندما ينتهون من بنائه ستتوقف إمرية عن الإنجاب وبعد ذلك سيعمل زوجها فقط، وهي - طبعاً إن أرادت - ستذهب من أجل غسيل الثياب ومن أجل الخدمة في البيوت . . . ولكن هذا فقط إن أرادت . . .

كانت إمرية تعرف كل الشاليهات الواقعة بين كلامش وفنار بهجة وكانت تعرف في أي شاليه يوجد امرأة تستعد للحبل، ومتى ستلد، وأما هي فقد كانت تضبط نفسها بناءً على هذه المعلومات. وكانت طبعاً تحبل بناءً على ذلك. ولم تكن إمرية لتخطىء أبداً. وماإن تلد إمرأة من ذوات الصدر الخشبي والثدي الجاف في إحدى الشاليهات حتى تلد إمرية قبلها بثلاثة أيام أوبعدها بخمسة أيام.

فيركضون إلى إمرية ويتوسلون قائلين:

- دخيلك ياإمرية . . . . . . لولدنا . . . نرجوك . . .

الأطفال الذين تُرضعهم إمرية يصبحون كالمغزل اوكرأس الفجل أوكالصياح.

وماأن تحبل إمرأة من ذوات الصدر الخشبي حتى يركضون إلى إمرية:

- دخيلك ياإمرية . . . حضري نفسك ياحلوتي . . . إن عروسنا ستضع مولودها في شهر شباط، بنهاية شهر شباط سيصبح لدينا طفل . . . لانريد أن نوصيك أليس كذلك؟

وستكون إمرية أساساً مستعدةً، أوأنها ستستعد بسرعة البرق.

- دخيلكم اعتنوا بإمرية بشكل جيد ها . . . . احضروها واعطوها ماتشاء . . . . إسألوها عن كل ماتشتهيه نفسها . . . إمرية . . . حلوتي . . .

يعطون الفيتامينات لإمرية . . . ياإلهي . . لاتثيروا غضبها . .

- إن أردت ابقي عندنا عدة أيام . . . افعلي ماشئتِ . . . لاتشعري بالملل ياروحي . . .

يسقون إمرية شراباً مقوياً :

- دخيل عينيك . . . لاتمرضي . . .

- يجرون لي كل الفحوصات الطبية اللازمة عند أفضل الأطباء ، يحلّلون بولي . . ليحميها الله ، . . ويفحصون الكلى .

تتحدث إمرية وهي تضحك قائلةً :

- ياإلهي ياستي ، إنني مرتاحة لدرجة أنني عندما قلت لهم بأن أعصابي مرهقة ، وضعوني في السيارة وأخذوني إلى النزهة ، أنجبت تسعة أطفال ولكن هذه هي المرة الأولى التي تحصل معي كل هذه الأمور .

إبنة الحاج صبري بيك حبلى ، والحاج بيك رجل مسلم للغاية ، ناداني وقال لي : « إنظري ياابنتي ، سيصبح عندي حفيدٌ ، لاتأكلي شيئاً مما يحضره صهري الحقير إلى هذا البيت ، يجب أن يرضع حفيدي حليباً نقياً ونظيفاً .

يجب أن يكون الحليب الذي سيرضعه حفيدي حلالاً ، لاأحد يعرف بأي قاذورة يعمل صهري ، ولامن أين يحصل على نقوده ، إنه عديم الشرف ، بل هو مزيج من كل الصفات السيئة ، إن كل شيء يشتريه بنقوده يُعتبر حراماً حذار من أن تأكلي مما يحضره لئلا ينتقل الفساد إلى حفيدي عبر الحليب اطلبي مني كل ماتريدينه ياابنتي ، وأنا سأحضر لك أفضل الأصناف .

تضحك إمرية . . . تضحك . . . بطن إمرية يضحك . . وصدرها أيضاً يضحك . . .

- وبعد ذلك ياستي ، ناداني صهر الحاج صبري بيك . وقال لي : « دخيلك ياإمرية سأقول لك شيئاً ولكن حذار أن تخبري أحداً به ، إن حماي شخص نذل للغاية ، أرجو ألاّ يسمع بماسأقوله لك ، أنت ستصبحين مُرضعة طفلي ، وحماي الحقير يأخذ من الحج قناعاً له ، يجب أن يرضع طفلي حليباً نقياً فلاتأكلي من الطعام الحرام الذي يحضره كي لايفسد حليبك وبالتالي يفسد حليب طفلي وأي شيء تشتهيه نفسك إطلبيه مني وأنا سأحضره لك . . .

تضحك إمرية . . . تضحك . . . من شعرها وحتى أخمص قدميها كل شيء فيها يضحك. ذات يوم أتت إمرية وهي تضحك من جديد وقالت:

- دخيلك ياستي، لاتسأليني عما حدث لي. كدت أن أتسمم، كنت أتوحم فااشتهيت بيض سمك / كاڤيار/ ، وهل يوجد في قريتنا كاڤيار؟! . . .

وضعتها في فمي . . . وضعت الكاڤيار في فمي، فتسممت ياستي وكدت أموت . طلبت سلطة خضار ثم قلت أريد مخللا ثم قلت أريد دبساً . . . آه ياستي لقد مضى على حملي ثلاثة أشهر وسيصبح هذا عاشر ولد عندي، ولن انجب بعد ذلك إن شاء الله سنبني بيت مخالفات ملك لنا ونرتاح .

هذه المرة كانت أم الطفل الذي سترضعه إمرية تعيش في أكبر شاليهات المنطقة، إنها غنية جداً. وأخيراً سيتمكن زوج إمرية من بناء بيت المخالفات .

- يابنت ياإمرية، هل تحتاجين لأي شيء، قولي بحق الله .

- لست محتاجة لأي شيء بوجودكم، ولكن نفسي اشتهت قليلاً من الكبة اللبنية .

- اركضوا واحضروا لإمرية كبة لبنية بسرعة هيا . . .

النهايـــة:

تبكي إمرية ، تبكي لأول مرة منذ وصولها إلى استانبول .

«لاتبكي ياإمرية، لاتبكي».

«بل سأبكي».

لقد أجرت بنت الحاج صبري عملية إجهاض، وأسقطت مولودها في الشهر الثالث .

- ياستي، لقد اطمأننت لهم وحَبِلت . . ، ماداموا سيستأصلون جنينهم لِمَ توسلوا إليَّ وقالوا احبلي، أمن السهل علي انجاب ولدي العاشر. لن نستطيع بناء بيت مخالفات . . . حقي أن أبكي . . . اسقطت بنت الحاج صبري مولودها .

امرية التي اطمأنت لإبنة الحاج صبري وحبلت بطفلها العاشر ،كانت تبكي لأن ابنة الحاج صبري قد أسقطت جنينها بعملية إجهاض.

لم تعد يدا إمرية تضحكان. . . ولاشعرها ولارؤوس أصابعهاو. . . وكيف ستضحك من كانت أم لعشرة أطفالٍ. . . . إمرية، التي لاتملك بيت مخالفات.

* * *

أوبرا غاز الشرف ذي اللون الأخضر

«اقترح عليّ حسن علي يوجل بأن أكتب
هـذه القصـة عـلى شكـل مسـرحية»
أقدم لذكرى علي يوجل هذه القصة...

«uvertuf» قبـل رفـع السـتارة.
– يقال بأن تاريخ العالم ملياران وأربعة مائة مليون عام.
تاريخي الذي لم ينته بعد يقدر الأن بخمسين عاماً.
تاريخ الفراشة يوم واحد.

* * *

عـثـر علمـاء الأثار على مـدينة جـديدة تحت الأرض، طوال سنوات عـديدة قامت هيئة علمية مؤلفة من علماء الآثار والمؤرخين والعلماءورجال المعرفة المنتسبين إلى العديد من الامم المتقدمة، بدراسة هذه المدينة. كانت نتائج الدراسة مدهشةجداً، ذلك لأن هذه المدينة المدفونة تحت التراب كانت إضافة إلى اتصافها بأوصاف وسمات تعود إلى حضارات أقدم بكثير من حضارات روما واليونان ومصر وأقدم من حضارات السومريين والحثيين والصينيين، كانت تحمل في الوقت نفسه آثار حضارتنا الراهنة، آثار الحياة والتكنولوجيا المعاصرة. وهذا شيء غامض للغاية.

وكأن هذه المدينة اتسعت لتضم في أحشائها أربعين عاماً من التطور، وتهدمت نتيجة زلزال ما. وبذلك امتزجت حضارات العصور المختلفة فيما بينها واختلط فيها الحابل بالنابل، فإلى جانب آلة التسجيل كان يوجد بلطة عائدة للعصر الحجري الحديث، وإلى جانب الصدرية النسائية كان يوجد قوس نشاب عائد للعصر البدائي، وإلى جانب التلفزيون كان يوجد جمجمة لهيكل عظمي لإنسان بدائي. لقد استقى العلماء معلوماتهم حول هذه الحضارة البائدة من خلال الأوراق النقدية والعقود والكتابات والبقايا ومن خلال قراءة الكتابات المكتوبة على جلود الحيوانات وعلى ورق البردي وعلى الأحجار ومن خلال قراءتها على أحدث آلات الطباعة.

وفي نهاية هذه الأبحاث والتحقيقات العميقة، وفي ضوء المعطيات اتفق على أنه قد حدثت حادثة في غاية الأهمية، وكانت الحادثة التي عاشها رجل يدعى طابا لاهورا كالتالي:

مقدمة: Entroduksiyon†

كان يوجد في المدينة المدفونة تحت الأرض والتي تعود إلى تلك الحضارة البائدة، غاز ذو لون أخضر يدعى غاز «الشرف» وهذا الغاز ذو اللون الأخضر كان بالغ العذوبة وقدرته على الطيران تفوق كل الغازات الأخرى، مما أوجب تعبئتة في قوارير وحفظه في مكان بعيد عن الضوء فإذا كانت درجة الحرارة أقل من واحد وعشرين درجة مئوية فإن لون غاز الشرف يصبح كاشفاً، كما أنه يفسد تحت أشعة الشمس، ويتبخر غاز الشرف بسرعة قصوى إذا مافتحت سدادة القارورة لمدة ثانية واحدة. وبالإضافة لذلك، فحالما يلامس غاز الشرف الهواء كان يشتعل بنيران متراقصة، ولهذه الأسباب كلها. فقد كان من الصعوبة بمكان الاحتفاظ بهذه المادة الحساسة التي تسمى غاز الشرف. الشرف، هو المادة الأكثر قيمة، إذ لايوجد على سطح الكرة الأرضية أي شيء أثمن من الشرف. ولهذا السبب فإن كل الناس يعملون ويكدحون من أجل الحصول على غاز الشرف، كانوا يعملون لدرجة الإرهاق من أجل ذلك.

كانت أشياء مثل الذهب والبلاتين والألماس والمجوهرات وغير ذلك، تعتبر مثل الفضلات والقمامة إذا ماقورنت بغاز الشرف.

وكان الذين لايرثون عن آبائهم وأمهاتهم شيئاً من الشرف، في ذاك العصر، فقدكانوا يولدون عديمي الشرف. ولكنهم بالعمل والجد يمكنهم أن يصبحوا من أصحاب الشرف. أي بالقدر الذي يسعى فيه الناس ويعملون بجد ونشاط يحصلون على غاز الشرف. ولقد كان هدف كل الناس، الحصول على أكبر قدر ممكن من غاز الشرف، وزيادة مالديهم من هذا الغاز.

وإذا ماعرفنا بأن كميات غاز الشرف الموجودة فوق سطح الأرض محدودة، فإننا سندرك بأن قيمته نابعة من هذا السبب، ولولا ذلك لما بقي أية قيمة لمادة يمكن انتاجها باستمرار.

كان الناس يكدون ويجدون من أجل حيازة قسط من الشرف الموجود فوق سطح الأرض بكميات محدودة، وكانوا يتحاربون ويتقاتلون فيما بينهم إذالزم الأمر. ولهذا السبب كانت قوارير الشرف تنتقل من يد ليد، وكانت تغير أصحابها بإستمرار، وكانت قيمة الإنسان تزداد في مجتمعه كلما كان بحوزته أكبر عدد ممكن من قوارير الشرف هذه.

كان الشرف عبارة عن غاز معبأ في قوارير سعة نصف لتر أولتر أولترين أوفي ألفيات سعة لتران أوفي دبجانات سعة خمسة عشر لتراً. وكما قلنا، فإن هذا الغاز الحساس الذي يصعب حفظه، يصبح لونه كاشفاً ويضيع لونه الأصلي إذا ماتعرض للضوء. وهذا ماكان يسبب الكثير من حوادث الإنتحار.

وكثيراً ماكانت الصحف تنشر أخباراً مثل: «انتحار تاجر بسبب تعرض دبجانتي شرف لضوء الشمس مما أدى إلى ضياع لونهما الأصلي».

وكانت تحدث جنايات كثيرة بسببه«قتل رجل زوجته لأنها طيرت شرفه حين تركت سدادة القارورة مفتوحة».

«منذ خمسة عشر يوماً. خرجت فتاة من البيت خوفاً من والدها ولم تعد إلى الأن، أحرقت شرفها حين تركت فراغاً بين السدادة والقارورة مما أدى إلى تعرض الشرف الراشح لضوء الشمس».

وكثيراً ماكان يصادف مثل هذا الإعلان في الصحف:

«لقد تركت زوجتي الغالية شرفنا البالغ ألفيتين في درجة حرارة تزيد عن واحد وعشرين درجة مما أدى إلى فساده، وهذا ماأدى إلى هروب زوجتي من البيت خوفاً من غضبي، تاركة عشنا السعيد وطفلينا الصغيرين، زوجتي الغالية إن طفلينا يناديان باستمرار: «ماما، ماما». عودي إلى عشنا السعيد فلقد عفوت عنك وليعف الله عنك، عودي، وسنعمل ونجدّ يداً بيد من أجل الحصول على كمية من الشرف أكثر من التي فسدت بكثير..».

كان يعيش في قرية من القرى رجل مسن وفقير يدعى طابالاهورا، ولأنه فقير جداً لم يكن يملك أي ذرة من الشرف. مرض طابالاهورا ذات شتاء قاسٍ، كان يعيش في بيته وحيداً، وبسبب قلة العناية به، تفاقم مرضه وارتفعت درجة حرارته حتى واحد وأربعين درجة ونصف، فاستلقى طابالاهورا على فراش الموت وبدأ يعد الساعات.

Recitonte

غرز الموت مخالبه في قلب طابالاهورا المُتَّقدْ من شدة الحرارة، وراح طابالاهورا الغارق في كابوس مخيف يهذي ويهذي بإستمرار.

Tirad

كان طابالاهورا يهذي على هذا النحو:

- الشــرف... الشــرف... آه الشــرف... الشــرف ذو اللون الأخضر، هأنذا أموت أخيراً... وداعاً أيتها الدنيا الجميلة.. بقيتُ أعمل طيلة حياتي مثل البغل... مثل الثور.... آه.. ولكن للأسف لم أستطع أن أحصل

على قارورة صغيرة من غاز الشرف . . . ولدت عديم الشرف وهأنذا أموت عديم الشرف أيضاً ، آه منك أيتها الأفلاك العاهرة ، افرحي وحنّي مؤخرتك . . . ماذا كان يضر لو ملكتُ قارورة صغيرة من الشرف بعد أن بذلت كل الجهود التي لم أكن أوفرها؟! الشرف . . . الشرف . . . ليت نفسي قرباناً لك أيها الشرف ياصاحب اللون الأخضر ، . . .

الكورس: Koro

السيد طابالاهورا ، السيد طابا لاهورا

سعيت في هذه الأرض . . . . دونما جدوى

جرجرت ظلك . . . . دونما جدوى

لايصح أن يعمل الإنسان كالحمار

هل أنت حمار؟

الحمير فقط هي التي تكدح كالحمار . . .

ولايصح أن يعمل الإنسان كالبغل

هل أنت بغل؟

البغال فقط هي التي تكدح كالبغل

ولايصح أن يعمل الإنسان كالثور

هل أنت ثور؟

الثيران فقط هي التي تكدح كالثور .

ولك . . . أنت إنسان

مثل الإنسان

لا . . .

ليس مثل الإنسان

بل بصورة إنسانية يجب أن تعمل.

بوصفك إنساناً!

مددت طولك... دونما جدوى

نشرت ظلك ... دونما جدوى

أيها الحمار... الحمار... الحـ... مـا... ر... ررر...»

/ رقصة الحمير، بالية اللبط وموسيقا النهيق، أصوات النهيق/

Duo «ثنائية»:

كانت دموع طابالاهورا، تهطل من عينيه الموشكتين على الإنطفاء وتنساب عبر لحيته البيضاء كان طابالاهورا يتململ في ضيق نتيجة الحرارة الزائدة، ويهذي وهو يرى الكوابيس بإستمرار.

Solo: لحن الحَنَكْ: سولو الحنك:

بدأ طابا لاهورا الذي كـان يلفظ أنفـاسـه الأخـيـرة وهو على فـراش الموت، يضرب فكيه أحدهما بالآخر، وبينما كانت روح طابالاهورا تخرج ورجلاه تبردان، وقع طقم أسنانه من فمه، وكما يفعل كل المسنين الذين يقع طقم أسنانهم، ظل مستمراً بمعزوفة الحنك النشازحتى وهو يلفظ أخر أنفاسه:

- في أخر دقيقة من حياتي لاأجد من يضع في فمي ملعقة ماء، ولوكنت أملك خمس أوعشر قوارير من الشرف لتحلقوا حولي كما تتحلق الفراشات حول الضوء، لكي يتقاسموا ثروتي... آه... لقد كدحت طوال هذه السنين دون فائدة. حتى أنني لم أستطع الحصول ولوعلى قارورة شرف واحدة. إني راحل إلى العالم الأخر، بعينين مفتوحتين، فليفرح مكتنزو الشرف.

أصبحت كلمات طابا لاهورا، الذي ازدادت سرعة فكيه، غير مفهومة وتحولت إلى هجائيات ومقاطع صوتية لامعنى لها:

- دي. . دي دي... دددد... دد.. ديد... دد..

رقصة الموت:

بدأت أنوار ملونة زاهية تتراقص أمام عيني طابالاهورا الموشكتين على الانطفاء ثم كبرت هذه الأنوار وازداد حجمها فغدت أشباحاً.

وراحت تصدر من بين أسنان هذه الأشباح المكشرة، قهقهات باردة وحادة كقطع الثلج:

- كيه.. كه كه كه... كيـ يـ يـ...ـه..كه كيه كه...

تكشيرة هذا الشبح الأشبه بالهيكل العظمي، مع أصوات الأصابع العظمية المتضاربة فيما بينها أصبحت تعطي أصواتاً شبيهة بالموسيقا الإسبانية. وكانت الهياكل العظمية تقفز وتتراقص حول فراش موت طابالاهورا، ومع استمرار رقصة الموت هذه بدأ طابالاهورا يرتجف، وفي كل رجفة كانت تخرج من فمه ومن أنفه قطعة من روحه الهرمة وقد كانت هذه الرجفات أشبه ماتكون برقصة هز البطن والأكتاف.

لم يبق سوى هزتي بطن وتخرج كامل روحه من جسده الساخن، وراح يردد مواله الأخير بالطاقة التي تبقّت عند قطعتي الروح المتبقيتين في قفص جسده الهزيل.

موال هز الذيل:

لاأريد أن أموت قبل أن أحصل على قارورة شرف صغيرة... شرااااف

...شـ...ر... ف ف ف... شر...ف ف...رَرَ...ف..ف...

في الأصل لم يكن قد بقي لدى طابالاهورا من الروح إلامايكفي لنصف طلعة موال وعندما أجبر نفسه على إتمام الموال مغامراً بالبقية الباقية من روحه، حصلت معجزة من تلك التي لانراها إلاّ في الأوبرات « هذه المعجزة هي التي تعرف باسم الخيال المجنح في الأوبرا ».

ثم خرج رجلٌ من تحت سرير طابالاهورا العتيق، وقال :

- لِمَ تصرخ هكذا؟ لماذا تخور كالبقرة؟

فقال طابا لاهورا :

- أنا لاأخور . . .

- وماذا تفعل إذاً؟

- أغني موالاً .

- ولك . وأي موال من المواويل هذا؟

- أنا مابيدي حيلة . . هكذا لحَّنه ملحن الأوبرا . إني أموت وهذا موالي الأخير . كان طابالاهورا مندهشاً لحد بعيد، لأن الرجل الذي خرج من تحت السرير لم يكن إلاّه لقد كان هو بذاته، لقد وقف أمام نفسه وجهاً لوجه، لقد أصبح طابالاهورا اثنين : أحدهما على فراش الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة والآخر ينتصب على رجليه، يتفرج على ذاته التي تموت، كان وجهاهما متشابهين ولكنهما كانا مختلفين تماماً بلباسهما وطريقة سلوكهما، فطابالاهورا الذي في السرير كان رجلاً منهك القوى وذابلاً، تلفه الأسمال والخرق البالية . وأماطابالاهورا الواقف فقد كان رجلاً كهلاً يتمتع بصحة جيدة ويلبس هنداماً نظيفاً وأنيقاً، كان قميصه مكوياً وكذلك ربطة عنقه ويلبس سترة نظيفة وبنطاله مكويٌّ أيضاً، كان يلبس حذاءً من المخمل، ويمسك عكازاً بيد تملأ الخواتم أصابعها .

Duo† «ثنائية» :

سأل طابالاهورا الأول النائم في السرير :

- من أنت؟

قال الواقف :

- أنا طابالاهورا . .

- كـيف يحـصل ذلك؟ . . . أنا طابالاهورا . . . ثم لايوجـد رجل في هذه القرية يدعى طابالاهورا غيري . . .

- أنت وأنا . . . كـلانا طابالاهورا ، . . . أنت طابا لاهورا المغـفل وأنا طابالاهوراليقظ . . . لقد صرخت وكان لك خوار مزعج لدرجة أنك أصبت أذني بالصمم ، لقد أزعجتني بصوتك القذر ، وهذا ماجعلني أنهض وأتي إليك متسائلاً عن سبب ضيق هذا الرجل ماالذي تريده؟ حتى تمزق نفسك من الصراخ بهذا الشكل؟! .

- أاااه . . . إن مصابي كبير . . . عشت طيلة حياتي ولم أرغب إلاّ بشيء واحـد وهو أن أصبح صاحب قارورة شرف واحدة ، ولم أحلم بأن تكون هذه القارورة كبيرة ، لأني أريد أن أموت وأنا صاحب شرف ، أريد أن تلتمع عيناي بذلك اللون الأخضر القدسي المبارك . أريد أن أضع قارورة غاز الشرف المقدس بيدي وأدفىء به بشرتي المجعدة . كدحت طيلة حياتي من أجل هذا ، كنت كل يوم أذهب إلى العمل مع بزوغ الفجر وأعود عند غياب الشمس ، وفي الليل أيضاً كنت أستمر في العمل على ضوء القنديل حتى منتصف الليل ، كل هذا من أجل أن أصبح مالكاً لقارورة صغيرة من الشرف ، لم أسيء لأحد على الإطلاق ، وعملت قدر المستطاع من أجل خير الناس لم أضع عيني على مال غيري ، ولم أنظر نظرة سوء لزوجة أحد أولابنته ، ولم أحل تكة سروالي في الحرام طيلة حياتي ، لم أحسد أحداً ، ولم أقل « الآخرون يملكون وأنا لاأملك » ، لم أسرق أحداً ولم أظلم أحداً . لم تخرج كلمة كذب واحدة من فمي طيلة حياتي ، لم أَحُدْ عن الصراط المستقيم ، كنت أهرع لمساعدة الجميع ، عملت كثيراً ، ولم أخن الأمانة أبداً . وبالإضافة لكل هذا وذاك فأنا لم أقصر في عبادتي كان إيماني كاملاً ، ولم يقف لساني عن الدعاء والصلاة لحظة واحدة ، لم أجرح حتى نملة عرجاء ، ولم أجرح شعور أحد .

فعلت كل هذا كي أصبح رجلاً صاحب شرف، عملت كل هذا كي أمتلك قارورة شرف واحدة. . . أااه. . وااه. . . أو و و ف ف . . . أماااااان. . . ااااي. . واي. . . إنني أموت. . . ياللأسف. . . لقد انتهى كل شيء. . . لم يبق من روحي سوى نفختين وهما أيضاً توشكان على الإنطفاء. . .

قال طابالاهورا الثاني:

- ألم تعرفني. . .

- لم تعد عيناي تميزان شيئاً.

دنا طابالاهورا الثاني من السرير ثم انحنى وقَرَّب وجهه من وجه طابالاهورا الأول، ثم قال:

- انظر جيداً.

- نعم. . . نعم. . . كأني عرفتك. ولكن متى؟ وأين؟! لاأستطيع أن أذكر.

قال طابالاهورا الثاني:

- لقد جئت إليك كثيراً.

قال طابالاهورا الأول وهو يئن:

- قل بسرعة. . . أذناي فقدتا القدرة على السمع، لاأستطيع سماع صوتك.

قال طابالاهورا الثاني:

- أتذكر عندما كنت في العشرين من عمرك. . .

- اصرخ. . اصرخ. . أنالاأسمع ماتقوله. . .

انحنى طابا لاهورا الثاني على الأول. وضع فمه بأذنيه وبدأ يصرخ قائلاً:

- كنت في العشرين من عمرك، وكنت أنت أنذاك أجمل شباب القرية، وكانت فتيات القرية يطاردنك، كنت قوياً ومجداً في العمل وقادراً على فعل كل

شيء. كنت ماهراً وناجحاً في كل شيء، ولهذا كان أغنياء القرية يركضون خلفك من أجل اتخاذك صهراً لهم. وقتئذٍ جئت إليك. . .

قال طابالاهورا الأول وهو يئن بصوت ميتٍ:

- نعم، نعم أذكر شذرات من هذا. . .

- نعم، أتيت إليك. وقلت لك أنذاك: «تزوج إبنة الأغا، لأن أغا القرية يملك ثلاثة دبجانات مملوءة من الشرف، كما أن الشرف الذي بحوزته لم يرضوء الشمس أبداً، مازال على حاله، لم يذبل أبداً، ولا يوجد عند أغا القرية سوى بنت وحيدة، أضف إلى هذا، بأن الرجل هرمٌ. وإحدى رجليه في القبر وسيموت قريباً، وبذلك سيبقى كامل شرف الرجل لك وحدك». ولكنك لم تصغي إليَّ أيها الحمار العنيد. وتَزوجَتْ إبنة الأغا من رجلٍ أخر ووضع يديه على دبجانات الشرف الثلاث، أيها الأحمق.

أنَّ طابالاهورا الأول قائلاً:

- أوف. . . ياإلهي. . . إني أموت. . .

صرخ طابالاهورا الثاني:

- افطُسْ. . .

- لاآسف على شيء، إلاّ على أني سأموت دون شرف.

- تستحق ماهو أسوء من ذلك، حتى هذا قليل عليك، هل تذكر حينما كنت في الخامسة والعشرين من عمرك، وكنت تكدح وتعمل من أجل الحصول على قارورة شرف واحدة، أشفقت، يومئذ، عليك وقلت لنفسي، لأقدم له هذه النصيحة، وقتها كنت تعمل حارساً ليلياً في معبد القرية، كنت في النهار تعمل في حديقة المعبد لدرجة الإنهاك، وفي الليل كنت تحرس المعبد، كل هذا الجهد كنت تبذله من أجل الحصول على قارورة واحدة من الشرف. . .

- أيمكن أن أنسى ذلك؟!..

- ذات ليلة كنت في مستودع السيد الراهب، وكنت تحصي قوارير الشرف الموجودة في المستودع بكثير من الحرص عليها والخوف من أن تمتد أية يد عليها.

كنت تلمس تلك القوارير بيديك بلهفة وأنت تقول: «ليتني أملك واحدة فقط من هذه القوارير» جئتك يومئذٍ وقلت لك: «يمكنك، إن شئت، أن تحصل على عدة قوارير لاعلى قارورة واحدة. وحسب». وعندماسألتني: «وكيف ذلك» قلت لك: «إن قوارير السيد الراهب تزداد يوماً إثر يوم، لدرجة أنه لم يبق في مستودعه مكان لأية قارورة جديدة، ولهذا فهو يفكر بإنشاء مستودع جديد، كما أن ثقته بك لاحَدَّ لها. والسيد الراهب يملك عدداً كبيراً من القوارير لدرجة أنه لايعرف عددها، خذ قارورة واحدة كل ليلتين أوثلاثة ليالي. وكن مطمئناً، إن روح الراهب لن تحس بشيء، حتى لواكتشفت ذلك، فلن يشك فيك، وسيقول بأن لصاً ماقد سرقها. خذ عدة قوارير.. من غاز الشرف».

فقلت لي: «انقلع من هنا، أنالاأقوم بفعل كهذا». وطردتني يومئذٍ، هل تذكر؟

فقال طابالاهورا الأول:

- وكيف لي أن أنسى شيئاً كهذا؟ أو و و ف... أما ااا ان... ااای... إنني أموت...

صرخ طابالاهورا الثاني:

- افطس

- إن عشت أومت، فإني سأرحل بعينين مفتوحتين.

- كنت تعمل في المكتب الحكومي لغاز الشرف وكنت حينئذٍ في الثلاثين من عمرك، كان الخزان مليئاً لحافته بغاز الشرف، كان مليئاً بغاز الشرف. وذات يوم قلت لنفسك «لويصبح عندي قارورة واحدة من الشرف، لن أطمع بأي شيء آخر،

فـأتيتك كي أقدم لك النصيحة، وعندما رأيتني قلت لي: «إياك أن تقل لي اسرق واحدة من قوارير الشرف، إن القوارير معدودة ومسجلة في السجلات الرسمية».

فقلت لك: «أيها الأحمق، ومن قال لك اسرق قارورة، . . . صحيح أن القوارير معدودة ولكن بإمكانك أخذ قليلٍ من الشرف من كل قارورة وتضعه في قارورة فارغة، وهكذا حتى تمتلىء، إن عدد القوارير واضح ومكتوب في السجلات الرسمية، ولكن مقدار مافي كل قارورة غير محدد، املأ قارورة فارغة بالمقادير التي يمكن أن تحصل عليها من القوارير الممتلئة» قلت لي يومئذ« مستحيل، أنالاأقوم بأفعال كهذه» فقلت لك: «لاتخف من أن يُكشف أمرك، وحتى لوحصل شيء كهذا، يمكنك أن تقدم عدداً من القوارير كرشوة، والقوارير المتبقية بحوزتك ستصبح ملكاً لك وحدك، أضف إلى ذلك أنه يمكنك أن تضع الشرف بقوارير خاصة، حتى إذا قاموا بتفتيش بيتك فلن يجدوا القوارير التي تحمل الخاتم الرسمي التي تميز قوارير الدولة عن غيرها».

فطردتني يومها وأنت تقول: «انقلع من هنا».

- أاااه. . . أمااان. . . إني أموت. . .

- افطُسْ. . .

قال طابالاهورا الثاني:

- كنت تعمل في الجمارك، وأنت في الخامسة والثلاثين من عمرك. كان أكبر همومك أنك عجزت عن شراء قارورة صغيرة من الشرف، لأنك لم تستطع توفير شيء من دخلك المحدود، وفي ذات ليلة ألقيت القبض على مهربي الشرف وهم يحاولون العبور عبر الحدود. وقد بلغت كمية الشرف التي صادرتها مئتي قارورة وعشرين ألفية وخمس عشرة دبجانة. قيدت المهربين وألقيت بهم في السجن، ورحت ترتجف وأنت تضع يديك على القوارير برأفة وحنان ومحبة

وتقول: «ياإلهي، ماذا يحدث لوكانت واحدة من هذه القوارير ملكي؟!». وقتئذ جئت إليك قائلاً: «يمكنك أن تحصل على خمس دبجانات بدل الواحدة إن أردتْ، فلاتتصرف بحماقة هذه المرة أيضاً وتضيع الفرصة».

وسألتني بحماس: «كيف ذلك؟» فقلت لك: «لاتسلم المهربين للحكومة، بل اطلق سراحهم، وبذلك سيعطونك خمس دبجانات من الشرف، ثم. ماالذي ستكسبه إن سلمت المهربين للحكومة؟... لاشيء.. بل لن تشعر الحكومة بما تقوم به، ويمكنك أيضاً أن تتعامل مع المهربين، لاتطلب الكثير، إذ يكفي أن تأخذ في الشهر عدة دبجانات من الشرف مقابل غض النظر عن الدبجانات التي سيهربونها، ولن يمضي عامان أوثلاثة أعوام حتى تصبح أشرف رجل في البلاد، وهذا مافعله الجمركي الذي كان قبلك، وهاهوذاقد افتتح متجرين ويقوم بتجارة الشرف». وماذا كان موقفك بعد كل هذا الكلام؟! لقد طردتني قائلاً: «اغرب عن وجهي، لاأريد أن أراك مرة ثانية».

قال طابالاهورا الأول وهويئن:

- أوف ف... أمااااااان... إنني أموت...

بينما تابع طابالاهورا الثاني حديثه قائلاً:

- كنت تعمل بتجارة الشرف، وكنت يومذاك رجلاً ناضجاً في الأربعين من عمرك، كانت عينا الزوجة الشابة لتاجر الشرف الهرِم، الذي كنت تعمل عنده، تلاحقك بإستمرارأما أنت فقد كنت مشغولاً بالنظر إلى اللون الأخضر الزاهي للشرف المملوء في القوارير بعينيك الزائغتين قائلاً: «إنني أتقدم بالعمر، ألن تتاح لي فرصة الحصول على قارورة شرف واحدة؟!

هرعت لمساعدتك قائلاً: استجب لزوجة تاجر الشرف، إنها مستعدة لأن تعطيك قارورة شرف واحدة عن كل ليلة تقضيانها سوية، علماً بأن الزوج لن يعلم بشيء لأن المرأة لن تعطيك من شرف زوجها بل من شرفها الخاص» فحملت العصا وطردتني...

- أو و و ف . . . أمااااان . . .

- كنت في الخامسة والأربعين من عمرك، جئت إليك من جديد وقلت لك: « رشح نفسك لإنتخابات المخترة، ضع اسمك بين المرشحين» فقلت لي: « لن ينتخبني القرويون» فقلت لك: « انشر دعاية كالأتي: سأقدم قارورة شرف لكل قروي إذاانتخبتموني لمنصب المختار» فقلت لي« وكيف سأقدم قارورة شرف لكل قروي في الوقت الذي لاأملك فيه ولاقارورة شرف حتى لنفسي». فقلت لك: دعك من هذه الحماقات، لاأحد يفي بالوعود التي تُقطع أثناء الدعاية». فلو سمعت مني يومئذٍ وأصبحت مختاراً لكنت امتلكت خمس أوعشرَ قواريرمن الشرف.

وحين بلغت الخمسين من عمرك، وقد بدأت أمالك تخبو وتتلاشى، أتيتك كي أرشدك إلى الطريق السليم، قلت لك: « إن رئيس البلدية يبحث عن وسيط ليقوم بجمع الرشاوي وهو مستعد لأن يعطي للوسيط قارورة شرف واحدة عن كل عشر قوارير رشوة. . . . أرجوك أن تصبح وسيطاً، أتوسل إليك ألاّتدع هذه الفرصة تفوتك، وقارورة بعد قارورة ستصبحان، أنت ورئيس البلدية، كلاكما من أصحاب الشرف، ولكنك بصقت بوجهي وطردتني.

- أو و و ف . . . أمااااان . . . آااي ي ي . . .

- بلغت الخامسة والخمسين من عمرك، مددت لك يد المساعدة من جديد وقلت لك« هيا تزوج بسرعة. وانجب أطفالاً بسرعة، وليكن لديك عدة بنات وكبرهم. إذلم يبق أمامك سوى هذه الطريقة لكي تصبح صاحب شرف، ولاتزوِّج بناتك إلاّاللذي يدفع لك أكبر قدر من الشرف. وليكن المهر يتراوح بين الثلاثة قوارير والخمس وذلك حسب جمال كل واحدة منهن، أما إذا نجحت بإيصال واحدة من بناتك عروساً إلى بيت من بيوت الأغنياء، عندئذ سيكون حظك في السماء، فقد تحصل وقتها على دبجانتين من الشرف» ولكن لمن أقدم النصيحة؟

بلغت الستين من عمرك، ولم يعد بإمكانك الزواج . . . لقد أصبحت طاعناً

في السن هذا من جهة ومن جهة أخرى فأنت لاتملك الشرف، فأية امرأة ستقبل برجل مثلك؟ كنت تبكي ليل نهار وأنت تقول: « الشرف... آه... الشرف» . أشفقت عليك فقلت لك « إن سجلات شرف القرية بين يديك، زوِّر قليلاً بأرقام الشرف، تحايل» فقلت لي: « لاأستطيع فعل ذلك» فقلت لك: « يمكنك أن تزعم بأن سدادات القوارير فتحت وتسرب منها قليل من الشرف، أوتقول بأن بعض قوارير الشرف قد تعرضت لأشعة الشمس مما أدى إلى فساد لونها، . . . وبهذا الشكل تصبح من أصحاب الشرف» غضبت يومها وطردتني وأنت تكيل لي الشتائم.

- وعندما بلغت الخامسة والستين وأصبحت علائم الشيخوخة واضحة عليك، جئت إليك من جديد وقلت لك: « دعك من الحماقة، إن الفرص تتناقص بإستمرار، افتح حانة للذين يلعبون القمار بالشرف، لوأخذت من كل طاولة نصف قارورة من الشرف بإعتبارك صاحب الحانة، لأصبحت أنت أيضاً من أصحاب الشرف» لكنك طردتني ورحت ترجمني بالحجارة.

- أصبحت في السبعين، ولم أحتمل دموعك من جديد فأشفقت عليك، وجئت لأرشدك إلي الطريق الصحيح فقلت لك: « انظر إلي، إن هذه أخر فرصة لك إن أضعتها فلن تصبح صاحب شرف طيلة حياتك، افتح بيتاً للدعارة وقدم النساء والفتيات للزبائن مقابل قارورة من الشرف لكل منهن» قلت: « لاأستطيع» فقلت لك « ومن قال بأنك ستمارس هذا العمل طيلة حياتك، ستمارسه فترة من الزمن، حتى يصبح لديك مقداراً كافياً من الشرف، بعد ذلك تقرض الناس بالفائدة ممايزيد من كمية الشرف التي بين يديك، وبعد ذلك اسحب يديك من كل هذه الأعمال واتكىء على كرسيك مثل أي رجل شريف يلقى احتراماً وتقديراً من كل الناس» لإقناعك بما أقول، أعلمتك بأن الذين يملكون كميات كبيرة من الشرف كانوا في البداية يفعلون الشيء نفسه ويمارسون الأعمال التي حدثتك عنها، هذه هي الطريقة المؤدية لأن يصبح الإنسان من كبار أصحاب الشرف، ثم حدثتك عن

الإسلوب الذي اتبعـه كل من فـلان وفـلان ثان وفـلان ثالث حتى أصبحـوا من أصحاب الشرف. وقلت لك: « يكفي أن تصلح أمورك في البداية، وبعد ذلك لن تضطر أبداً لأن تتنازل وتمارس الأعمال الدنيئة التي أتيتها في البدء، بل ستعيش باستمرار على أنك رجل صاحب شرف وجدير بكل احترام». لكنك ضيعت أخر فرصة لك وبلغت الخامسة والسبعين دون أن تتمكن من حيازة كمية ولو صغيرة من الشرف وهاأنت الأن على فراش الموت تلفظ أنفاسك الأخيرة.».

قال طابالاهورا الأول:

- ولِمَ تذكرني بكل هذه الأمور وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة؟ لماذا تصفعني في وجهي بحقيقة كوني مغفلاً وأحمق؟ إني نادم لأني لم أسمع نصائحك تلك. فلو أصغيت لما قلته لي لكان بحوزتي الأن على الأقل خمس أوعشر دبجانات شرف، لقد أدركت الأن أبعاد الدنيا، ولكن بعد فوات الأوان، وماذا يفيد الأن كل هذا الكلام... لقد انتهى الأمر.

قال طابالاهورا الثاني:

- لا، لم ينته الأمر، فلووضعت عقلك برأسك لأصبحت من الأن فصاعداً رجلاً شريفاً.

صرخ الأول قائلاً:

- ولك... ماذا تقول أنت... تتحدث عن الشرف في الوقت الذي ألفظ فيه أنفاسي الأخيرة؟...

قال طابالاهورا الثاني:

- لست راضياً عن أن تموت وأنت شخصٌ عديم الشرف، بإستطاعتك أن تعيش إن أردت ذلك.

عندئذٍ نسي طابالاهورا الأول الموت من شدة انفعاله وصرخ:

- وكيف ذلك؟

فقال طابا لاهورا الثاني :

- فيم يفيد العلم والمكتشفات الحديثة؟ إنه يفيد في إطالة أعمار اولئك الذين أصبحوا هياكل عظمية دونما رمق من الحياة، مثلك أنت، اصغ إلى هذا الصوت :

كورس العلماء:

رجال يرتدون المرايل ويضعون على عيونهم نظارات طبية، بعضهم ملتح وذو شعر طويل وبعضهم يحمل منظاراً وبعضهم يحمل مجهراً وأخرون يحملون تلسكوباًوإبر الحقن، تأبط الجميع كتباً سميكة ضخمة وراحوا يدورون حول طابالاهورا الأول، وهم ينشدون إحدى الأغنيات العلمية :

نحن. . . نحن. . . نحن العلماء

نحن. . . نحن. . . نحن رجال المعرفة

نميت الأحياء .

نحيي الأموات .

نحن. . . نحن. . . نحن العلماء .

نحن. . . نحن. . . نحن رجال المعرفة .

نتعرق الحقوق .

نبول الاقتصاد .

نسعل الكيمياء .

نعطس الفيزياء .

ونحك الطب .

رئيس الكورس: أقوى فترات بني الإنسان وأكثرها عطاء هي تلك التي بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وأقلها عطاءً وقوةً ولاينفع المرء لشيء فيها، عندما يتخطى الخامسة والستين .

ونحن العلماء ورجال المعرفة نسعى ونعمل من أجل أن يعيش أولئك الذين تجاوزوا الخامسة والستين، والخامسة والسبعين والخامسة والثمانين والخامسة والتسعين. من أجل أن يبقوا على قيد الحياة.

نحن العلماء، نحن رجال المعرفة، نقف عائقاً، بفضل«أساليب تحديد النسل»، أمام ولادة الأطفال الذين يكون بينهم عدد من الدهاة والعباقرة، ولكننا نطيل أعمار تلك الهياكل العظمية التي لم يبق فيها سوى الكلس والتي لاتصلح حتى لتكون سماداً للنباتات البرية، إننا نمنع مجيء الأطفال الذين يفيدون من أجل المستقبل ومن أجل الحفاظ على حياة أطول وأكثر سعادة للذين لايفيدون لأي شيء . . .

كورس العلماء:

« هناك حبوب للمسنين، وشراب للطاعنين في السن، هناك فيتامينات ولقاحات، وهناك أيضاً تدليك، ومعالجة بالأشعة، المعالجة بأشعة اكس.

نحن . . نحن . . . نحن العلماء.

نحن . . نحن . . . نحن رجال المعرفة.

نتعرق الحقوق.

نبول الاقتصاد.

نسعل الكيمياء.

نعطس الفيزياء.

نحك الطب.

الرياضيات . . . .

«عشرات الألوف من العلماء. في المخابر، في المكتبات، على المنابر، وفي المشاغل نعمل في كل مكان، من أجل أن يعيش الذين هم على قيد الحياة أطول مدة. ومن أجل ألايعيش الذين لم يعيشوا بعد . . . ».

Duo **«ثنائية»**:

قال طابالاهورا الثاني للأول :

- هاقد رأيت، إن العلماء ورجال المعرفة يعملون ليل نهار من أجل أن تعيش حياة أطول، تستطيع أن تعيش إن أردت ذلك .

فقال طابالاهورا الأول :

- لقد فات الأوان، لقد أضعت كل فرصي في هذه الحياة . ولن أستطيع أن أصبح صاحب شرف . . . ثم ماذا تفيد الحياة بلا شرف؟

فقال طابالاهورا الثاني :

- لم يفت الأوان بعد، إذا اتبعت النصائح التي أعطيتك إياها فإنك ستصبح صاحب شرف، لم تفلت الفرص منك بعد، صحيح أنك لاتستطيع أن تتزوج لتصبح صهر أحد أصحاب الشرف ولكنك قادر على السمسرة بين الفتيات والشباب، لتجد لأصحاب الشرف أنسباء ملائمين وعرائس مناسبة للشباب المرشحين للزواج من أبناء الشرف، صحيح أنك لاتستطيع أن تتزوج لتصبح أباً لعدد من الفتيات . ولكن جميع بنات القرية يمكنك اعتبارهن من بناتك . لقدأصبحت في سن تؤهلك لأن تحظى بإحترام الجميع .

يمكنك أن تقوم بجميع الأعمال التي نصحتك بها في السابق ولكنك رفضتها، يمكنك أن تمارس جميع تلك الممارسات، مما سيجعلك قادراً على أن تصبح وبشكل أسهل وأسرع رجلاً من أصحاب الكميات الكبيرة من الشرف .

لان طابالاهورا الأول ومال إلى الاقتناع :

- ولكنني على وشك الموت، أيمكن أن أعيش؟

- العلم سيطيل عمرك :

وعلى الفور، تحلق العلماء حول طابالاهورا الأول المستلقي على فراش

الموت بعضهم أسرع لفحص بوله، وبعضهم بدأ بإحصاء كريات دمه البيضاء والحمراء والبعض الأخر اعطاه دماً، ورابع قدم له شراباً، وخامس أعطاه حقنة. . . استيقظ طابالاهورا الأول من نومه، شيئاً فشيئاً كمن يستيقظ من نوم جميل وممتع، وراح يشد عضلاته حتى جلس، تلفت حوله فلم ير أحداً لم يعد هناك طابالاهورا الثاني الذي يشبهه إلى حد بعيد، ولاتلك الهياكل العظمية التي كانت ترقص رقصة الموت ولاكورس العلماء، كمخلوق يستيقظ من نوم الشتاء، انتصب طابالاهورا على رجليه وخرج من كوخه البائس لم يستيقظ جسده المتداعي وحسب بل استيقظت روحه ودماغه.

سارع على خلق الفرص التي ضيعها خلال حياته، ونجح بذلك. . . راح يمارس كل الأعمال التي كان يأبى أن يمارسها، وخلال ثلاثة أيام أصبح صاحب قارورة من الشرف. وبعد فترة وجيزة ازدادت ممتلكات طابالاهورا من قوارير الشرف ومن الألفيات والدبجانات.

ثم أتى زمان أصبح فيه طابالاهورا أشرفَ رجلٍ في القرية، جمع كل الشرف الموجود في القرية وترك القرية بأكملها بلاشرف، فلم يبق أي رجل في القرية يملك ولوقارورة واحدة من الشرف، ولكن طابالاهورا الطاعن في السن، الشره، الطماع، لم تكن عيناه لتشبع بأي طريقة من الطرق. انتقل من القرية إلى الناحية، وامتلك كل كميات الشرف الموجودة في القرى المجاورة، ثم أتى زمان أصبح فيه طابالاهورا صاحب الشرف الوحيد في الناحية. ثم هاجر طابالاهورا الذي لم تعرف أطماعه حدوداً، من الناحية إلى المنطقة وفي مدة قصيرة جمع كل الشرف الموجود في المنطقة وكدسها في خزّانه، ثم انتقل طابالاهورا الذي لم تشبع عيناه من المنطقة إلى المدينة، ثم ملأ خزانه بكلِ القوارير والألفيات والدبجانات الموجودة في المدينة. حتى امتلأت الخزانات تماماً، ولم يبق في المدينة كلها أي رجل ذي شرف إلاطابالاهورا. انتقل طابالاهورا الذي كان يرتجف من شدة طمعه إلى العاصمة ليستقر فيها، وقبل أن يمضي وقت طويل صارت كميات الشرف الموجودة في البلاد كلها ملكاً له وحده.

امتدت يد طابالاهورا، صاحب الشرف الوحيد في البلاد، إلى البلدان المجاورة جمع أيضاً كميات الشرف الموجودة هناك. وفيما بعد لم يصبح طابالاهورا مالكاً لشرف البلدان والقارات فحسب بل لكل الشرف الموجود في العالم بأسره، حتى غدا هو صاحب الشرف الوحيد في الدنيا، بعد أن فرغت مستودعات سائر بني البشر ولم يبق منها ولو قطرة واحدة من الشرف. وبعد أن أصبح طابالاهورا محتكراً لكل الشرف الموجود في العالم، أمر رجاله بنقل الشرف الموجود عنده إلى الساحة العامة. وجمع كل قوارير الشرف ودبجاناته وألفياته الموجودة في العالم، ثم طلب بأن توضع منصة في مكان يتوسط هذه الأكوام من كميات الشرف، وبعد ذلك دعى إلى تلك الساحة جميع قادة العالم ورجال الدول والسياسيين والحكام والعلماء ورجال المعرفة والمشاهير والفنانين، وبعد أن حضر الجميع صعد إلى المنصة الموجودة بين أكوام قوارير الشرف المكدسة فوق بعضها البعض، وتوجه بالحديث لأكثر رجالات العالم شهرة وعظمة ونخبوية قائلاً:

– ضيوفي الأعزاء، ستحدث الآن، أمام حضوركم الكريم. أعظم وأفظع حوادث العالم وأكثرها رعباً، وستكونوا شاهدين على ذلك.

شرح طابالاهورا وبكثير من التأثير، مسيرة حياته حتى الخامسة والستين من عمره. وكيف كان يكدح ويعمل لدرجة الموت ولكنه لم يستطع أن يحصل على نقطة واحدة من الشرف، وشرح للحضور عن الأساليب التي بواسطتها أصبح أشرف رجل في العالم، وبها أيضاً حرم الجميع من امتلاك الشرف:

– بإحتكاري لجميع كميات الشرف الموجودة في العالم، وبحرمان الجميع من امتلاكه أكون قد انتقمت من أجل حياة دامت مدتها خمس وستين عاماً، ولم أستطيع خلالها امتلاك أية كمية من الشرف، والآن لاأحد في الدنيا يملك الشرف غيري، ولكن طمعي لم ينته بعد، إنني أريد إخماد هذه الأطماع عن طريق أداء خدمة كبرى لجميع الناس، ولجميع الأجيال القادمة، ومن أجل أن لايعاني أحد من الناس من الخوف لعدم امتلاكه للشرف، لذلك عزمت على إزالة الشرف الموجود في الكون.

قـال هذه العـبـارات وفـتح سـدادة إحـدى دبجـانات الشـرف الموجـودة، فتصاعدت ألسنة لهب ذولون أخضر، وسرعان مااختلطت مع الهواء، وتصاعد اللهيب، وبلمح البصر، انتقل اللهيب إلى بقية القرارير، ونظراً لأن أحداً من الناس لم يفهم بالسرعة المطلوبة جنون طابالاهورا المخيف، لم يستطيعوا منعه من تحقيق رغبته.

إن تفاعل غاز الشرف ذواللون الأخضر مع الهواء بهذه السرعة جعل طابالاهورا محاصراً في وسط اللهيب المتصاعد من غاز الشرف إلى السماء، كان بإستطاعته إنقاذ نفسه من بين اللهيب لوأراد ذلك، ولكنه كان يريد أن يتلاشى مع شرف الدنيا كله.

لم تستغرق عملية احتراق شرف العالم وزواله دقيقة واحدة، إن اللذين رأوا هذا الحريق المخيف، جمدوا في مكانهم، الحركة الوحيدة التي قاموا بها هي أنهم قفزوا خطوة واحدة إلى الخلف لإتقاء ألسنة اللهب خوفاً على حياتهم. وبعد أن خمدت النيران، لم يبق شيء، لم يبق أي أثر للشرف ولاللقوارير ولالطابالاهورا نفسه.

كان هذا الموقف مخيفاً جداً، أيمكن أن يحدث موقف كهذا؟ ماذا سيفعل الناس في عالمٍ خالٍ من الشرف؟ لأنه بزوال غاز الشرف، يزول الدافع الذي يجعل الناس يعملون.

قديماً كان الناس يكدحون طيلة حياتهم من أجل الحصول على قارورة واحدةمن غاز الشرف، ولكن الأن لماذا سيعملون؟! لقد زال الهدف الذي كانوا يعملون لأجله.

لم يبق شرف في العالم كي يعمل الناس من أجل امتلاكه، لقد تحول الناس إلى قطيع من العاطلين عن العمل والعاجزين والمتسكعين، لم يكن بالإمكان لوضع كهذا أن يستمر فلابد من إيجاد العلاج المناسب لهذه المسألة.

اجتمع كافة سياسيي العالم من أجل ايجاد الحل المناسب لهذه المشكلة، وأنشؤوا منظمة دولية غايتها الوصول إلى الحل المناسب. وفي الإجتماع الأول لهذه المنظمة، تحدث رئيس البلدان المتحدة إلى المندوبين قائلاً:

- أيها الأصدقاء الأعزاء، أيها الأعضاء، بقي عالمنا إلى عهد غير بعيد عالماً ذو شرف، ولكن كما نعرف جميعنا، أصبحنا نعيش في عالمٍ خالٍ من الشرف بعد تلك الكارثة الفظيعة التي تعتبر من أكبر كوارث التاريخ، إن وضعاً كهذا أصعب من الموت بالنسبة للناس الذين يعقلون. لأن تطور البشرية توقف، لأن الحضارات ماعادت تتطور، لأن حركة التكنولوجيا شُلَّت تماماً، لأنه مع زوال غاز الشرف من الدنيا، زال حلم الإنسان بالحصول عليه وبالتالي ماعاد يعمل شيئاً. والأن، اجتمعنا في هذا المكان من أجل بحث الوسائل الكفيلة بإعادة عالمنا الحبيب إلى عهده القديم، عالم مفعم بالشرف كما كان من قبل».

وبعد المحادثات والمناقشات والمداولات الطويلة والمداخلات توصل سياسيو البلدان المتحدة إلى القرار التالي:

- إن مهمة السياسيين متركزة على التعبير عن الرغبة في عودة العالم إلى عالم ينعم بالشرف، وينتهي عملهم عند هذه النقطة، إذأن معرفة المواد التي يمكن أن تحل محل غاز الشرف لم تكن ضمن اطار معرفة السياسيين، وإنما هي من اختصاص العلماء ورجال المعرفة، وبماأن العلماء ورجال المعرفة تحت إمرة السياسيين، فلا بد من تكليف أشهر العلماء بمهمة تمكين العالم، مرة أخرى، من أن يصبح عالماً ذا شرف.

درس في التاريخ:

بعد احتراق قوارير الشرف بألف عام. كان استاذ التاريخ، ذو الشعر الأبيض والنظارة ذات الإطار الذهبي، يحاضر بطلابه في إحدى قاعات المحاضرات التابعة لإحدى الجامعات قال:

- قبل ألف عام نجح العلماء، الذين عزَّ عليهم أن يبقى العالم عديم الشرف، في انتاج غاز الشرف الاصطناعي بدلاً من غاز الشرف الطبيعي الذي احترق إثر تلك الكارثة التاريخية، وهكذا تمكنت البشرية من الحصول على شرفها من جديد، ويعتبر انتاج غاز الشرف الصناعي بداية العصر الحديث، لقد شعرت البشرية بسعادة لاحدود لها. إزاء هذا الحدث العظيم.

درس الكيمياء:

كان البروفيسور في قاعة الكيمياء التابعة لكلية العلوم في إحدى الجامعات يشرح لطلابه حول ماهية غاز الشرف الاصطناعي، يقول:

- مهما تم استعمال غاز الشرف الاصطناعي بدلاً من غاز الشرف الطبيعي، فإن الأول يظل بإستمرار عاجزاً عن شغل مكان الثاني، لأن شغل العباد لن يكون أبداً مماثلاً لشغل الرب، فلون غاز الشرف الذي يتم انتاجه في المعامل لم يستطع أبداً أن يرقى إلى مستوى ذلك اللون الأخضر الجميل الذي كان يتميز به غاز الشرف الطبيعي، وهذا الغاز الإصطناعي إما أن يبقى أخضراً فاتحاً قليلاً أوغامقاً أكثر مما يجب، وعلى الرغم من التقدم الكبير الذي حققته التكنولوجيا الحديثة، إلاّ أن البشرية لم تستطع التوصل إلى ذلك اللون المميز. بالإضافة لذلك نجد أن قدرة غاز الشرف الاصطناعي على الاحتراق في الهواء متدنية بالمقارنة مع غاز الشرف الطبيعي. كما أن سرعة تسربه من السدادة أكبر... لننتقل الأن إلى الحديث عن كيفية استخراج غاز الشرف الإصطناعي.

محاضرة في الاقتصاد:

كان البروفيسور في كلية الاقتصاد يلقي محاضرة حول اقتصاد الشرف. يقول:

- كان الناس في زمن الشرف الطبيعي يولدون بدون شرف، وبعد ذلك وبالعمل المستمر يصبحون من أصحاب الشرف. وكانوا يحصلون على غاز

الشرف، وبشكل طبيعي، وبالقدر الذي يعملون ويكدحون به. ولكن احتراق وزوال المخزون العالمي للشرف، وكما هو معروف أدى إلى انتاج غاز الشرف الصناعي، إن استخراج غاز الشرف عن طريق التصنيع أدى إلى خلق وضعٍ جديدْ.

حين أصبح غاز الشرف وعملية إنتاجه صناعة قائمة بذاتها، راحت البلدان التي تملك معامل غاز الشرف تزيد من انتاجه يوماً إثر يوم. وقد أدى هذا الوضع إلى بروز ظاهرة التضخم في الشرف. ونتيجة للمنافسات الحادة انخفضت قيمة الشرف انخفاضاً كبيراً، وأخيراً أصبحت حيازة الشرف مثلها من حيث الخطورة، مثل عدم حيازته إن هدف علم الاقتصاد هو جعل بعض الناس مالكين لكميات كبيرة من الشرف وبعضهم الأخر مالكاً لكميات قليلة منه وبعضهم الثالث لايملك أية ذرة منه.

إن تطور صناعة الشرف وازدياد عدد مصانعه مع مرور الزمن. فضلاً عن زيادة التجارة فيه، كل هذا أدى إلى زيادة كميات الشرف زيادة كبيرة أدت إلى خفض قيمته.

في مطلع القرن الماضي، اجتمع كبار رجال الإقتصاد وتوصلوا إلى القرارات التالية:

١- بما أن كمية غاز الشرف الطبيعي المحترقة معروفة، فإنه لايجوز السماح بتصنيع مايزيد عى هذه الكمية من الشرف.

٢- بما أن نقل الشرف المعبأ بالقوارير وبيعه عملية صعبة، فإن مخزون قوارير الشرف سيبقى محفوظاً في خزائن الدول، وستقوم الدول المعنية بطرح سندات ورقية في البورصة توازي كمية الشرف المخزونة لديها، يتداولها الناس فيما بينهم.

٣- كان الناس، أيام الغاز الطبيعي، يولدون دون شرف، وفيما بعد يصبحون مالكين له بفضل العمل، أما الأن، في عصر الشرف الاصطناعي، لابد من تخصيص كمية لكل طفل يولد حديثاً بمقدار متساو من الشرف وفق مبادىء

العدالة الإجتماعية ويعاقب، خلال حياته، على كل مخالفة قانونية يرتكبها باسترجاع كمية من سندات الشرف التي تكون بحوزته.

محاضرة في الحقوق:

بروفيسور كرسي الحقوق في الجامعة كان يلقي المحاضرة التالية:

- يتفرع موضوع« حقوق الشرف إلى فرعين:

١- حقوق الشرف فيمابين الدول.

٢- حقوق الشرف فيما بين الأزقة.

إن طبيعة غاز الشرف الإصطناعي مختلفة من بلد لأخر، يختلف لون غاز الشرف ورائحته وقدرته على التسرب واحتراقه من معمل لأخر.

هناك بلدان تطبق فيها حقوق الشرف، حتى وإن لم يوجد فيها معامل للشرف. ذلك لأن البلدان التي تفتقر إلى معامل انتاج غاز الشرف مضطرة لأن تستورد الشرف وبالتالي فإن حقوق الشرف أكثر تطوراً وأكثر بروزاً من الشرف نفسه.

في حين أن غاز الشرف الطبيعي لارائحة له. نجد أن الإصطناعي منه ذورائحة، وبفضل هذه الرائحة يمكن التمييز بين غاز الشرف الحقيقي وغاز الشرف المزوّر.

ومن أجل الإحساس برائحة الشرف، لابد للمرء من أن يشم قارورة الشرف من مؤخرتها.

* * *

ستة حراس في الأراجيح الطائرة

افتتاحية شرقية.

يلاللي . . . . يااااا ليللي . . . ليلليلليل يالليللي ياليلي ياليلي . . . ياليلي ي ي ي . . . ياليلي ي ي . . . ياحبيبي . . . ياا احبيبيبي . . . يالليلي ي ي . . ليل ليل ليل لي لي ي ي ي . . .

مدخل خاص بالبلد المتخلف:

الأغنياء فقط هم من يعيشون طفولتهم في بلدي .

الأغنياء فقط هم من يعيشون شبابهم في بلدي .

الأغنياء فقط هم من يعيشون شيخوختهم في بلدي .

ياليلي . . . ياليلي يالا لا لا لي ياليـيـ لي . . في بلدي .

مونولوج:

مازالت حسرة الطفولة التي لم أعشها تختلج في نفسي . لم أعش طفولتي أبداً. لم تكن عندي أية ألعاب ، لاقطارات ولاسيارات ولاسفن صغيرة تطفو على سطح الحوض . لم أمارس لعبة الميليه قط . ولم أكن أملك أية طابة . لم أطيّر أية طائرة ورقية ، ولم أقذف أي خذروف ، ولم أكن أملك بالوناً .

ذات مرة ، رافقت أمي في زيارة إلى بيت أحد الأغنياء بمناسبة العيد .

كان هذا الطفل الغني يملك الكثير الكثير الكثير من الألعاب المختلفة. مددت يدي كي أمسك بقطا قطار قطاره قطاره الذي يمشي على السكة. ولكن أمي ضربتني على يدي وهي تهمس:

- هـــس ــس... ستخربه.

فسحبت يدي.

الكـــورس

عندما كنت طفلاً كنت أقول في نفسي باستمرار:

عندما أكبر سأصبح غنياً، ثرياً جداً جداً، وعندما أصبح ثرياً سأشتري العديد العديد من الألعاب، الكثير الكثير من الألعا اااااب، قَدْ الدنيا اااا.... سيصبح لدي الكثير من الأ... الألـ... الألعا... الألعا ااااب...

ولأن الناس يعيبون على الكبار إذا مالعبوا بألعاب الأطفال، لذا فإنني سأضع آلعابي في إحدى الغرف. وفي النهارات التي سأعطّل فيها وفي الليالي بالنسبة لأيام العمل سأملأ وقتي باللعب في هذه الألعاب سأدخل إلى غرفتي الملأى بالآلعاب وسأقفل الباب على نفسي، وذلك كي لايراني أحد ويسخر مني. ستكون عندي قطارات كثيرة تمشي على السكك... سأشد النوابض ثم أتركها تتحرك.... وسأستمتع بها.. دو و و ت... تشيه... تشوف... تشيه... تشوف.. تشيه ـه ـه.. تشوف وف دو و و ت.

سأمتلك الكثير من المليه والجنيَّات والقصص. وأغطية زجاجات الكازوز وبالونات ملونة وبالونات تنتهي بمزامير. ومراوح ورقية وطائرات من الورق المقوى.....

عيد الطفل في بلدي يصادف في الثالث والعشرين من نيسان تاريخ تأسيس مجلس الأمة الكبير.

الحدث الأول:

شعرت بالضيق من البقاء في البيت يوم عيد الطفل. قبيل المغرب خرجت من البيت. ذهبت لزيارة صديقي الطبيب الذي كان يقطن في بيت يطل على شارع المرفأ. هو أيضاً كان متضايقاً من المكوث في البيت. بدأنا نراقب الشارع عبر النافذة ذات الألواح الزجاجية الكبيرة. كانت السيارات تمر في الأسفل وفجأة ظهر بالون أزرق من بين السيارات. وراح البالون يقفز متجهاً إلى رصيف المشاة المقابل. كان الرصيف منعزلاً بعض الشيء. من بعيد كان ماسح الأحذية يتقدم: كان رجلاً بين الخامسة والثلاثين والأربعين من عمره. له شاربان متدليان، حافي القدمين، وخصلات شعره الطويل كانت مبعثرة. يرتدي قميصاً بالياً وممزقاً. كانت المسافة بين ماسح الأحذية والبالون مسافة لاتقل عن الأربعين خطوة. وبينما كان يسير ببطء وتثاقل رأي البالون المتدحرج على الأرض. وعلى الفور نزع الرجل صندوق البويا المعلق بكتفه ووضعه على الأرض. واندفع بسرعة نحو البالون. أخذ البالون من الأرض نظر إليه ثم راح يلعب به على رصيف المشاة. ولكنه كان يلعب كرة القدم بالبالون... كان البالون يصطدم بالجدار ويرتد إليه. يرمي البالون في الجو إلى الأعلى. ثم يقفز ليضربه برأسه... يشوطه مرة أخرى... ضربة رأس ثانية.... يأتي بحركات تدل على سعادة واضحة. ثم انفجر البالون وانطفأ عاد إلى حيث صندوق البويا وهو يحمل مزق البالون المنفجر. علق الصندوق على كتفه، مر أمامنا ببطء وهو يحاول نفخ مزق البالون في فمه.

كان الطبيب يضحك بجنون لدرجة أنه كاد يختنق.... سالت الدموع من عينيه من شدة الضحك.

سألته:

– لماذا تضحك؟

لم يستطع صديقي أن يجيب لغرقه بِالضحك.... خشيت أن يُغمى عليه. أن يختنق

وأنا أيضاً ضحكت من قيام الرجل ذي الشوارب المتدلية باللعب بالبالون

ولكن لم أبلغ المستوى الذي بلغه صاحبي . . . وعندما نظرت إليه وإلى ضحكه المتواصل لم أستطع أن أتمالك نفسي . . . كلانا يضحك ، حوار من الضحك المتواصل . . هاه . . هيه . . هاه . . هيه . . هاه . . هوه . . هيه . . . .

الحدث الثاني :

تحدث الدكتور ، قائلاً :

كنت أعمل طبيباً في مستشفى بورصة ، ذات ليلة كنت فيها مناوباً وكنت قد ذهبت إلى النوم في وقت متأخر كثيراً أيقظوني مع طلوع الفجر .

- ماذا هناك؟

- جاءنا ستة مرضى في حالة اسعاف يادكتور بيك . . .

ارتديت ثيابي وذهبت إلى المهجع ، ستة أشخاص بزيْ الحراس الليليين يخورون دون توقف ، لابد أنهم على هذه الحالة منذ أمد طويل ، لأنهم جميعاً خائرو القوى ، مهدودون تماماً من التعب . . . سألتهم قائلاً :

- ماذا بكم؟

يخفقون في إعطاء الجواب لأنهم يستمرون في خوارهم ، فكرت في البدء أنهم ربما كانوا متسممين . إذا تناولوا طعاماً في أوان نحاسية غير مطلية بالقصدير فلاشك قد تسمموا . غير أن حالتهم لم تكن تشبه التسمم . فلم تكن هناك أعراض للتسمم . خوار متواصل لكنهم لايتقيؤون . . .

أعطيت كلا منهم حقنة مسكنة ، غابوا جميعاً عن الوعي في نوم عميق . لم يكن أحد يعرف ماحلّ بالحراس الليليين ، فقد جلبتهم الشرطة في سيارة اسعاف عند الفجر لتتركهم هنا دون أن تقول شيئاً .

بعد نوم متصل دام خمس عشرة ساعة استيقظ أحدهم ، أما الأخرون فلم يستيقظوا إلابعد انقضاء مايزيد عن هذه المدة .

حديث أحد الحراس:

قال:

تعرفون مدينة الملاهي، . . . تلك الواقعة مقابل قصر الوالي. . . مقابله تماماً. أنا حارس مكلف بحراسة تلك المنطقة التي توجد مدينة الملاهي فيها. . أعمل حارساً ليلياً منذ ثلاث سنوات.

في ليالي الصيف تبقى مدينة الملاهي مفتوحة إلى مابعد منتصف الليل، فضلاً عن أن هناك – داخل مدينة الملاهي – أصحاب أقسامها المختلفين والعاملون فيها، يقولون مهمة حراسة ممتلكاتهم. ماأريد قوله هو أن عملي في الصيف أسهل. غير أن الأمر يكون مختلفاً في الشتاء. . . . إنه صعب في الشتاء. ذلك لأن مدينة الملاهي لاتفتح في الشتاء. يوجد في داخلها العديد والعديد من الأراجيح والألعاب، مثل دوّامة الخيل، القوارب الطائرة، الدواليب الدائرة والحانة. . إنها تحتوي على كل شيء. . . كل هذه الأشياء بإستلامي. إنني مسؤول عنها. تعرفون ثلة الصبية، ثلة الزعران. . . المشردين. . . لو أغمضت عيني لامتلأت مدينة الملاهي بهؤلاء جميعاً لينقضوا على مختلف الأراجيح وأجهزة اللعب والتسلية. مما يؤدي بالطبع إلى تكسيرها وجعلها غير صالحة للعمل حتى صرفنا النظر عن تكسير الأجهزة فإن مدينة الملاهي تمتلىء بالأطفال الصغار، فلوسقط أحدهم لاسمح الله، لووقعت حادثة ما. لأصابتني الكارثة بشكل مباشر لأنني سأكون مطالباً، وقتئذ، بالتعويض عن كل مايحدث من أعطال وأضرار. . . وهذا يعني أن عمل الشتاء أصعب بكثير. . . . فضلاً عن ذلك فإن منطقتي تقع مقابل قصر الوالي تماماً. . . والمخفر أيضاً قريب جداً من مدينة الملاهي كما تعلمون. . . لهذا السبب لاأستطيع أن أغض النظر أوأن أتغيب بين الحين والأخر كما يفعل غيري من الحراس الليليين عملي في الصيف ليس سهلاً وحسب بل ومسلي أيضاً. وذلك لأن المصابيح يابيك تكون ملألئة، والدواليب الدوّارة تتحرك بإستمرار، كل شخص يركب المراجيح ويلعب ويضحك، . . . يوجد من كل الأعمار النساء والفتيات، الأطفال والكبار:

الصيف رائع جداً. . . . لايوجد في بلدنا أدوات مسلية كهذه. . . أكثر لعبة مشغوف بها هي لعبة مراجيح دوّامة الخيل، ياالله ماأجملها وهي تدور وتدور وتفرفر. . . إنها مسلية ياروحي. دائماً كنت أقول لنفسي ليتني أستطيع ركب هذه المراجيح.

آه ياإلهي، كم أتمنى ذلك. . ولكن كيف؟! إنني حارس هذه المنطقة. . وأرتدي الزي الحكومي الرسمي، أضف إلى ذلك أنه من العيب على رجل مثلي وبهذا العمر أن يلعب بهكذا ألعاب. كم جلست تحت هذه الأرجوحة كي أخذ قسطاً من الراحة. . . . أنظر إليها وأحدث نفسي. . . ماذا يحدث إن ركبت هذه الأراجيح؟ إذا بقيت لوحدي فإنني سأركب فيها. . . ولكن الحراس الأخرين ماكانوا ليعطوني فرصة لذلك. إذ أنهم كانوا يأتون في المساء ويتجولون في الحديقة كنت أقول لهم: « ولك، والله أمركم غريب. ماذا تفعلون هنا؟! هيا ليعد كل منكم إلى حيّه. ». يذهبون وما أن تنقضي نصف ساعة حتى يعودوا إلى الحديقة. تعرفون صديقنا عبدالله، إنه أحد الذين حضروا معي إلى المشفى. . . حارس الحي العلوي، قال لنا ذات ليلة: « ولك، تعالوا لنركب نحن أيضاً هذه الدَّوامة اللعينة التي تفرفر».

إنني مدرك تماماً أنهم ماأتوا إلى هذه الحديقة إلاّ من أجل أن يركبوا الدولاب الدوّار. وإلاّ فما سبب تركهم حجرة الفرن الدافئة ومجيئهم إلى هنا في ليالي الشتاء الباردة؟!.

إن حراسة حديقة الملاهي هي مسؤوليتي أنا. فقلت لعبد الله: « ولك، اخجل من شاربيك، هل أنت طفل. حتى تركب المراجيح؟!». فقال أحمد على الفور، وهو الأخر ينام معنا في المشفى: « ياروحي، وماذا سيحدث إن ركبنا. . ؟»وأصر الأخرون قائلين: « هيا لنركب جميعنا» الحقيقة، يجب ألانخفي عن العبد مايعرفه الله، أنا أيضاً كان لديَّ رغبة عارمة لركب دوامة الخيل وربما كانت رغبتي لذلك تفوق رغبة الجميع، غير أني كنت أخجل من جهة، ومن جهة ثانية كنت أقول:

« لايجوز» وذلك بصفتي حارس هذا المكان.

حديث الحارس الثاني:

يادكتور بيك، وفي النهاية استطعنا اقناع عارف. حارس حديقة الألعاب فقال: « هيا لنعلب. . . . ولكننا «سنأكلها إن رأتنا الشرطة» . فقلت له: « لنركب، وبعد ذلك لنطلق صفاراتنا فرررت فررررت فيظن رجال الشرطة بأننا على رأس عملنا. » فقبل عارف ولكنه وخوفاً من انفضاح أمرنا اشترط علينا قائلاً: « أيها الأصدقاء، سنركب هذه المرة، ولكنها ستكون الأولى والأخيرة».

وبالنسبة لي من جهة كنت متشوقاً لركب الأرجوحة ومن جهة أخرى كنت خائفاً جداً، لأن الأرجوحة ماأن تبدأ بالدوران حتى ترتفع مقاعدها في الهواء، ركبنا ارجوحة النملة الفارسة ولكن الأهم من هذا أننا لم نستطع تشغيلها، كيف تعمل هذه الشيطانة؟ قال صديقنا يوسف الذي لم يستيقظ بعد« لندفعها بأيدينا» فاعترض عارف لأنه يعمل حارساً في حديقة الألعاب وقد رآهم وهم يشغلونها في الصيف فقال: « إن هذه تعمل بالكهرباء، لابد من وجود زر كهربائي، ولكن أين هو، لن أستطيع أن أراه في هذا الظلام، غداً سأهتدي إليه في ضوء النهار، فلنؤجل الركوب لمساء غد».

حديث حارس آخر:

كنت على علم بأن مدير الأمن سيقوم بجولة تفتيشية في تلك الليلة، ولكنه لن يبدأ بها إلاَّ قبيل الفجر. . . فقد وردت إليه شكوى بأن الحراس ينامون في فرن الكعك، ولهذا فقد كان السيد المدير عازماً على ضبط الحراس. . . كنا قد قررنا ركوب أرجوحة النملة الفارسة ومن ثم نذهب إلى أماكننا. فقد بقي الكثير من الوقت حتى يبدأ السيد المدير جولته، وسنلحق التفتيش. قال عارف: « لقد علمت مكان الزر، سأكبسه وحالما تبدأ الأرجوحة بالدوران سأركض وأقفز إلى مقعدي». ركبنا نحن في مقاعدنا منذ البداية. وماأن كبس عارف الزر حتى بدأنا بالدوران، فركض عارف وحاول أن يقفز إلى أحد المقاعد المعدنية المصنوعة على شكل علب، غير أنه لم يستطع فعل ذلك. وبقي معلقاً على مقعدي أنا، ولولم أسارع إلى سحبه

من يده لاصطدم بالعمود الحديدي ولسقط مهشماً. . . . سحبته وأجلسته معي. . . بدأنا بالدوران . . . لاتسألني أبداً كم هي ممتعة. . . ندور وندور. . . وكلما دارت تكتسب قوة أكثر وتزداد سرعتها، وكلما ازدادت سرعتها ارتفعت المقاعد في الجو أكثر. . .

هل عرفت أرجوحة دّوامة الخيل؟! في الوسط يوجد عمود حديدي ويتفرع عن هذا العمود سلاسل حديدية في نهايتها علب مصنوعة من المعدن، ومإإن نبدأ بالدوران حتى تطير السلاسل في الجو وترتفع العلب المعدنية. نحن ارتفعنا مع العلب، وكلما ارتفعنا أكثر تزداد سرعة الدوران وكلما ازدادت سرعة الدوران نرتفع أكثر وأكثر. . . بدأ الأصدقاء بالضحك كر كر كر. . . ولك، بيت الوالي في الجهة المقابلة، والمخفر على مقربة من هنا، سيسمعون أصوات ضحكنا. . . ولكن بلعبة كهذه لايمكن أن تمنع نفسك من الضحك، نضحك ونضحك باستمرار. . . ونضحك ،ندور فر فر فر. . . وتزداد السرعة ونرتفع أكثر. . . بقينا في الهواء ندور وندور لفترة غير قصيرة.

حديث حارس آخر:

في هذه الأثناء يابيك. . . ازدادت سرعتنا حتى كدنا نطير من المقاعد. . . لقد نسيت الضحك من شدة خوفي فتشبثت بالمقعد المعدني، فلم تكن هناك أية وسيلة أخرى، وبعد قليل عدت إلى رشدي فقلت: « ولك عارف . . خفف سرعتها، نكاد نطير في الهواء يابني». رد عارف قائلاً: « ومايدريني أنا كيف أخفف سرعتها». . تفو. . . الله يخرب بيتك. . . ستة من الحراس أصبحنا ستة نسور تحلق في الجو. صرخت منادياً عارف: « ولك عارف، إذا كان الأمر كذلك، هيا بادر إلى ايقافها» فقال عارف: « ولك، وكيف يمكن ايقافها؟!». الله يخرب بيتك ياعارف لقد بقينا في الهواء، ماذا سيحدث الأن؟ راح الأصدقاء يصرخون«أوقفها» فقال عارف: « لقد تعلمت طريقة تشغيلها، ولم أتعلم كيفية إيقافها».

يابيك، انظر إلى حالتنا، بتُنا معلقين في الفراغ وفي وضعية الطيران

«ياعارف لقد بقي المفتاح متجهاً نحو الأسفل، ومن المستحيل إيقافها». . . بدأ رأسي يدور وعيناي يغشاهما السواد. راح عبد الله الذي كان يقبع خلفي في العلبة المعدنية يصرخ قائلاً: « إن محرك هذه الأرجوحة يعمل بالكهرباء» ياللأحمق! ومن منا لايعرف هذه الحقيقة؟! ثم مافائدة معرفتنا هذه في إنقاذ حياتنا، لاشك أن الرجل قد فقد عقله من كثرة الدوران. سألته: « وماذا يعني إذا كانت تعمل بالكهرباء؟!». أجاب: « أعني أن هناك فرصة وحيدة للنجاة، لنُصَلِّ جميعاً من أجل أن ينقطع التيار الكهربائي عن المدينة بصورة عامة، لأن ذلك سيؤدي بالتأكيد إلى توقف هذه الجنيَّة وإلاّ فإننا سنستمر بدوراننا هذا حتى يوم القيامة». وقبل أن يكمل عبد الله حديثه رأيت شيئاً يسقط أمامي على الأرض... ماذا يكون؟ اكتشفت أن الذي أمامي كان يتقيأ... أنا الآخر بدأت معدتي تضطرب فلم أتمالك نفسي وقذفت مابأحشائي إلى الخارج. . ا ر ر ر ط . . ها . . ا ر ر رط . . ها مازلنا ندور في الهواء، صاح أحد الزملاء ولم أتبين من يكون«سامحونا» وأما أنا فقد بدأت بترديد الشهادة. لم يكن الموقف سهلاً ياسيدي. . . كنا ندور بسرعة الطائرة النفاثة على ارتفاع قد يصل إلى خمسة مآذن فوق بعضها... أتوسل إليك ياإلهي، ألاتقطع قدم الإنسان ولو كان عدوي، من الأرض، أُصلي إليك، ألاتترك أحداً من عبيدك معلقاً في الهواء تعصف الرياح من تحته. إنها مرعبة ولاتشبه أية كارثة أخرى.

كان أحدهم يتقيأ من جهة ويكيل الشتائم من جهة أخرى قائلاً: « لعن الله مخترع هذه الآلة. . ». شخص آخر لم أستطع معرفته علق قائلاً: « لو كانت تعمل بالبنزين، لتوقفت فور انتهاء البنزين ولااستطعنا النزول منها». لقد اندلق كل مافي جوفي إلى الخارج من شدة التقيؤ، حتى كادت أمعائي ورئتيَّ تنخلع من مكانها لأن جوفي أصبح فارغاً تماماً.

اقترح عارف قائلاً: لنصرخ جميعنا وبصوت واحد طالبين النجدة. . » انظر إلى هذا الأحمق، إن مضافة الوالي في الجهة المقابلة والمخفر بجانبنا، أيمكن والحالة هذه أن نصرخ ونطلب النجدة؟! وعندما كنا نحاول اسكاته، صرخ: « النجدة ة ة ة ة . . » ولكن صوته انطفأ. لاشك أنه أغمي عليه وتكوم في العلبة المعدنية. بعد ذلك

بدأ يوسف الموجود خلف عارف، ينفخ في صفارته ولكنه تدحرج هو الآخر في علبته. هرع رجال الشرطة من المخفر إلى الخارج. وعلى الرغم من أن هؤلاء احتشدوا في مدينة الملاهي، فإنهم قفلوا راجعين إلى مخفرهم وهم ينفخون في صفاراتهم، إذ لم يخطر ببالهم أن نكون في الجو وبالتالي لم ينظروا نحو السماء حيث نحن ...

لاأعرف كم من الوقت بقينا نطير، وكم من الوقت ظللنا نخور ونتقيأ، فلقد غبت عن الوعي تماماً، وعندما فتحت عينيَّ وجدت نفسي في المشفى ... مازلت أشعر كما لو كنت في الجو، كما لو كنت أطير ... .

مداخلة الطبيب:

وعندما خرج مدير الأمن في جولته التفتيشية قبيل الفجر ولم يجد أحد من الحراس في الحي المخصص له، تحول إلى كتلة مشتعلة من الغضب. وعندما كان متجهاً إلى المخافر المسؤولة عن هؤلاء الحراس، كان ضوء النهار قد بدأ ينتشر فوق المدينة ومإإن وصل إلى جانب المخفر حتى فوجىء بأصوات عجيبة قادمة من الأعلى ... إنها ليست أصوات غربان ولاهي صوت نقار الخشب، فتملكه شوق لمعرفة كنه هذه الأصوات، وفجأة رأى أكبر مراجيح مدينة الألعاب في حالة دوران وبداخلها ستة حراس يخورون دون توقف، بعضهم تدلى رأسه وأخر ذراعه وثالث تدلت رجله . . . . .

خاتمة: Epilog

عدت إلى البيت، كانت تبدو علائم الحزن والأسى واضحة على من هم في البيت.

- ألم تعرف ماذا حصل ؟

- ماذا هناك؟

- علقت طائرة ورقية بالأسلاك الكهربائية المارة في مواجهتنا . . وفيما كان الطفل ، الذي تسلق الشجرة ، يريد الإنتقال من الشجرة إلى عمود الكهرباء . . . . .

فقلت : «اصمتوا» . ! .

نظرت عبر النافذة . كانت الطائرة التي علق ذيلها بأسلاك الكهرباء ماتزال ترفرف في الهواء محدثة ضجيجاً

الكورس :

عندما كنت طفلاً ، كنت أردد باستمرار : ستكون عندي طائرات ورقية كثيرة كثيرة جداً . . حين أكبر .

الكثير . . الكثير . . الكثيـيـيـ . . ر من الطائرات الورقية ، سيكون عندي طائرات تملأ الدنيا . . .

النهاية :

في بلادي لايعيش إلاّ الأغنياء . . . . يلللي . . . يلالللي . . . يلا . . يلا . . يلللي ي ي ي . . . ياااا ليـيـيـ . . لي . . . ياليل .

* * *

مِقبرة العائلة

ذات هواء ربيعي عليل ... كان المسافرون ينتظرون القطار في محطة يشيل يورت كانت صالة الانتظار ممتلئة، والمقاعد التي في الخارج تغص بالناس، بالإضافة لذلك كان الناس يتماشون ذهاباً وإياباً.

كانت أمرأة واقفة تحمل طفلاً في لفائفة وتتحدث مع سيدة عجوز تجلس قبالتها.

كان مظهر المرأة التي تحمل طفلاً يدل على أنها أكبر من عمرها بكثير، علماً أنها لاتتجاوز الثلاثين من عمرها. وجهها مستدير وممتلىء وذو لون أبيض جاف، ووجنتاها حمراوان يكاد الدم ينفر منهما. كانت تلف الطفل بإحدى يديها بينما تمسك حقيبة نسائية بحجم حقيبة السفر في اليد الأخرى. كانت تصل حتى نقطة ثقل جسدها وكانت رجلاها كما البللور، كما أنها تلبس حذاءاً ليس له كعب طويل مما أضاف قِصراً إلى قصرها.

سألت المرأة العجوز التي أمامها:

- عفواً، أرجو ألاّ أسبب لك إزعاجاً بسؤالي، إلى أين أنت ذاهبة ياخالة؟!

- إلى استانبول ... ذاهبة إلى بيت صهري الذي يقطن في جان كورتران.

- رائع ... وأنا أيضاً ذاهبة إلى استنبول ... فمقبرة عائلتنا موجودة هناك ... إني ذاهبة إليها ... فيما مضى كان لدينا سيارة، ولكن زوجي باعها عندما انتقلنا إلى البناية الجديدة، إنه لمن الصعوبة بمكان أن يمتلك سكان البنايات سيارة وذلك لتعذر

إيجاد مكان لها ... كم هو شاق انتظار القطار خاصة بالنسبة لي، لأني لم أعتد على ذلك، فلو كانت السيارة موجودة، لذهبت إلى مقبرة العائلة بسرعة البرق.

- وأين تقع مقبرة عائلتك؟

- مقبرة عائلتنا؟ في الـ . . . . ماسم تلك المنطقة . . دائماً أردد اسمها ... آه ياإلهي ... إنها لاتخطر على بالي الآن ... انظري إلى هذا العُسر ... إن اسمها على طرف لساني ... هاه . . لقد تذكرت ... في المقبرة العصرية . . « ثم تلتفت يمنة وشمالاً . لترى إن كان أحد مايسمعها . . » كانت في البداية في مولانا كابي، ثم لم يرق هذا المكان لزوجي، لكون المقبرة قد عتقت كثيراً فنقل مقبرتنا إلى المقبرة العصرية.

- وأين تقع المقبرة العصرية؟!

- هل صحيح أنك لاتعلمي أين تقع؟! في الشيشلي . . حي الأكابر، إن مقبرة عائلتنا هناك. وأنتم . . أليس عندكم مقبرة لعائلتكم؟!

- طبعاً عندنا، أيعقل غير ذلك؟

- بعض الناس لايوجد عندهم« رفعت صوتها كي يُسمع أكثر» عندما يكون الإنسان ابن عائلة محترمة، يجب أن يكون عنده مقبرة للعائلة، أتعلمين ... الحقيقة أننا ارتحنا كثيراً منذ أن أصبحت مقبرة عائلتنا هناك.

- كيف؟

- لأن الإنسان سيضطر في ذهابه بزيارة واحدة أن يذهب إلى هنا وهناك من أجل زيارة الجميع. وهذا سيأخذ وقتاً طويلاً. أما مقبرة العائلة فهي شيء مختلف تماماً، فالجميع موجودون في مكان واحد، جعل الله نعمة وجود «مقبرة العائلة» من نصيب كل إنسان.

- ومن لكم هناك؟

- في مقبرة عائلتنا؟ كل أقرباء زوجي هناك... أعمامه، وحماي، وأخوات

زوجي، ثم هناك أيضاً زوجة زوجي السابقة، فأنا زوجته الثانية فلقد توفيت الأولى ياسيدتي.

- جميل.

- أنا لم أرى حماي أبداً... ولكني أذهب لزيارته في مقبرة العائلة.

فقالت المرأة العجوز وهي تنهض:

- لقد فتح شباك التذاكر على الأغلب، سأذهب لأشتري تذكرة.

اقتربت المرأة ذات المقبرة العائلية من امرأة مزدانة وقالت:

- يوجد أناس غريبو الأطوار في هذه الدنيا ياسيدتي، أليس كذلك؟!

ولما لم تجب المرأة المزدانة، استمرت في حديثها:

- مثلاً، المرأة التي كنت أتحدث معها منذ قليل... مالزوم افتخارها المستمر بكون عائلتها تملك مقبرة خاصة... طبعاً لالزوم لذلك، كما أنه لايوجد قانون يجبر الناس بأن يمتلكوا مقبرة عائلية ها. لاأعلم ماهو السبب الذي يجعلها تكذب مدعية ذلك... هل هو معيب ألايمتلك الإنسان مقبرة عائلية؟ لايمكن أن يستمر الإنسان بنفس المستوى المعيشي طيلة الحياة ياسيدتي أليس كذلك؟! الفقر ليس عيباً أبداً... ليعط الله كل إنسان مقبرة عائلية... أعتقد بأنكم رأيتم بأن منظر هذه المرأة لايدل أبداً علَى امتلاك عائلتها لمقبرة عائلية. إن الإنسان يُعرف من هيئته... أرجو ألايزعجك سؤالي، أين تقع مقبرة عائلتكم ياسيدتي؟

- في سمسون.

- آااا... إنه مكان بعيد... مقبرتنا نحن في الشيشلي، تعرفين المقبرة العصرية أليس كذلك؟... مقبرة عائلتنا هناك... هل رأيت المقبرة العصرية في حياتك؟ إنها مكان جميل جداً. حقيقة إن أسعارها باهظة ولكن... لكن فهواؤها عليل ومناظرها خلابة، كما أنها قريبة من موقف الباص. بالإضافة لذلك فهي مكان معتنىً به، طبعاً ليس باستطاعة أي شخص الحصول على مقبرة هناك... إنه

غالٍ جداً... دخيلك... هذا أفضل بكثير . . ليمُدَّ كلُّ إنسان رجليه على قدِّ لحافه...
لكل إنسان قيمة مختلفة أليس كذلك؟ أين قلت تقع مقبرة عائلتكم؟

- في سمسون.

- طبعاً مقبرة العائلة هناك رخيصة جداً.

زمّت المرأة المزدانة شفتيها مبتسمة، ثم نهضت وغادرت المكان دون أن تجيب.

نظرت المرأة ذات المقبرة العائلية حولها، ولما لم تجد أحداً في الصالة يمكن أن تتحدث معه، ذهبت إلى الطرف الآخر من الصالة، وهناك اقتربت من إمرأةٍ سمراء ذات قَدٍّ نحيل وقصير ثم قالت:

- هه... تقول أن مقبرة عائلتها في سمسون!..

فسألتها المرأة السمراء القصيرة التي لم تفهم شيئاً:

- عفواً؟!...

- تقول بأن مقبرة عائلتها في سمسون.

- من؟

- المرأة التي كنت أتحدث معها منذ قليل... أيمكن للمرء أن يختار مقبرة عائلية في سمسون؟ ياأختي... إنها تريد أن تخدع عقلنا الصاحي. إذا كان لابد من الكذب فليداري الإنسان كذبته... أتعلمين أين تقع مقبرة عائلتنا؟ إنها في المقبرة العصرية.

- جميل.

- بالإضافة لجماله، فيه هواء عليل.

- في مقبرة توب كابي أيضاً يوجد مقابر عائلية جيدة.

- هل مقبرة عائلتكم هناك؟

- لااا... ليس لعائلتنا أية مقبرة ... فقط رأيت مقابر الآخرين هناك ... إذ يوجد مقابر جميلة جداً هناك.

- أحسنتِ لأنك قلتِ لي ذلك، أين؟

- في توب كابي.

- مادامت تلك المقابر العائلية جميلة. سأقول لزوجي كي يشتري لنا مقبرة عائلية هناك، إن مقبرة عائلتنا القديمة كانت في مولانا كابي ولكن لم تعجب زوجي لأنها قديمة، لهذا فقد نقل مقبرة عائلتنا إلى المقبرة العصرية. قلتِ أنه ليس لديكم مقبرة عائلية؟

- لا يوجد.

- واه. . واه. . ياإلهي، لاتحزني، قريباً إنشاء الله سينعم الله عليكم بواحدة ... نحن نملك مقبرة عائلية منذ قديم الزمان، حتى قبل أن أتزوج كان حماي يسأل عن حسبي ونسبي، فقال: «أنا، لاأزوج ولدي من فتاة تنحدر من عائلة ليس عندها مقبرة عائلية». وبعد البحث والسؤال، فرح كثيراً حين علم بأن عائلتي أيضاً تملك مقبرة عائلية. ياإلهي كم هم سيئون هؤلاء الناس ... لقد قال أحد الحساد لحماي: «إن هذه ليست مقبرة عائلتهم، بل هي مقبرة عائلة أخرى، وقد دلّوك عليها زاعمين أنها لهم». ياللتزوير ... والله ... بالله ... كانوا يريدون تزويج ابنتهم من عريسي ... إن هؤلاء الناس يصبحون سيئين للغاية أحياناً.

صرخت المرأة السمراء النحيلة وهي تركض خلف طفل صغير:

- لاتخرج، سيأتي القطار الآن.

نظرت المرأة ذات المقبرة العائلية حولها من جديد، ولما لم تجد أحداً لتتحدث معه خرجت من الصالة.

مسحت الناس الذين يجلسون على المقاعد بنظرها، ثم اقتربت من سيدة عجوز تجلس على مقعد في وسط الساحة وقالت:

- أرجو المعذرة، أين تذهبين؟!

- إلى استانبول.

- وأنا أيضاً، عندنا مقبرة عائلية ... إني ذاهبة إليها ... وأنتم هل عندكم مقبرة عائلية؟

- نعم.

- أرجو ألاأسبب إزعاجاً بسؤالي، أين تقع، عجباً؟

- / في البي بيك/

- إنه مكان جميل، أنا أحب البوغاز«المضيق» كثيراً، هل ترين هذه المرأة «دلت على المرأة المزدانة» هل تَرين هذه المرأة؟ إنها تدعي بأن لديهم مقبرة عائلية في سمسون.

ولما لم تجب المرأة، تابعت:

- لقد هجم الحر فجأة ياسيدتي، أليس كذلك؟

- نعم.

- في الحقيقة، إن للثلاجة فائدة كبيرة في الجو الحار، طبعاً، يوجد لديكم ثلاجة؟!

- نعم.

- كم قدماً؟

- لاأعلم، فأنا لم أنظر إلى أقدامها. لاشك أنها بأربعة أقدام، إذ إنها تقف بشكل قائم كالعمود.

- أما التي عندنا فهي بثمانية أقدام، عتقت فاشترينا واحدة جديدة، عندما تصبح الثلاجة قديمة فإنها تصبح عديمة الفائدة.

- طبعاً.

- كما أننا بدلنا غسالتنا بواحدة جديدة، والآن نفكر بإعطاء مكنستنا الكهربائية إلى أحد الفقراء، لأننا سنشتري واحدة جديدة، اقترحت على زوجي بأن نبيعها ولكن زوجي أدامه الله يده منبسطة دائماً. أصر على أن يعطيها لأحد الفقراء. كان عندنا سيارة أيضاً ولكن زوجي باعها عندما انتقلنا إلى البناية الجديدة غير أنه سيشتري بدلاً منها، إنشاء الله ... تقولين أنه لديكم مقبرة عائلية في ببي بيك أليس كذلك؟!

- نعم.

- ومن لكم هناك، أقصد في مقبرة العائلة؟

- إن مقبرة عائلتنا قديمة جداً.

- ها!!!. قديمة ... لماذا لاتشترون واحدة جديدة. نحن اشترينا واحدة جديدة في المقبرة العصرية ... إن زوجي أدامه الله، لم تعجبه المقبرة التي كانت في مولانا كابي لأنها قديمة. كما أننا جهزنا مكاناً لحماتي وقد أحطناه بالسلاسل، وفوقه غطاء من المرمر ... عفواً، نحن لانحب أن نتأخر ولانستبق الأحداث ولكن لاأحد منا يعرف مالذي سيحدث غداً ... هذه هي حالة الإنسان، يجب أن يكون جاهزاً منذ الآن ... لاأحد يعرف مالذي يخبئه الغد لنا في هذه الدنيا الفانية أليس كذلك ياسيدتي؟

- أطال الله عمركم.

- حماتي تقول اغرسوا لي غرسة تين ... إنشاء الله سأغرسها بيدي هاتين ... فأنا أحب حماتي كثيراً ... حماها الله من العين الحاسدة ... . يوجد فوق القبر المخصص لحماتي غطاء سميك من المرمر، يُغلق بإحكام، وهذا القبر محاطٌ

بالسلاسل ... وبالإضافة لكل هذا فإنه سيصبح أجمل إذا غرسنا بجانبه غرسة التين ... والآن ... . هل تقع مقبرتكم العائلية في منطقة راقية؟

جاء القطار الكهربائي، وركض المنتظرون، لم تستطع المرأة ذات القبر العائلي أن تركب في نفس العربة مع المرأة التي كانت تتحدث معها منذ قليل، وذلك لأن الإزدحام قد حال بينها وبين ذلك. فركبت عربة أخرى.

جلست في المكان الذي وجدته فارغاً. كان يجلس على يمينها رجل وعلى يسارها طفل، فلم يعجبها هذا التوسط. فذهبت إلى مكان آخر.

قالت للمرأة التي جلست بجانبها:

– أنتِ أيضاً تذهبين إلى استانبول. أليس كذلك؟!

– نعم.

– وأنا أيضاً ... يوجد عندنا مقبرة عائلية. . إني ذاهبة إليه ... لاشك أنكم أيضاً تملكون مقبرة عائلية. أليس كذلك؟!

– كلا ...

– يا ااا إلهي ... ماذا تفعل عائلتكم في هذه الحالة؟!

– مثل ماذا؟

– أطال الله عمركم، ماذا تفعلون بموتاكم؟

– لا يوجد عندنا مقبرة عائلية.

– مقبرة العائلة شيء رائع ياأختاه ... كلهم يجتمعون في مكان واحد ... أمام العين ... ن مقبرة عائلتنا تقع في المقبرة العصرية. هل ذهبت إلى هناك؟! ياإلهي اذهبي وشاهديه إنه مكان جميل ورائع ... يقع في الشيشلي ... إنها حارة الأكابر على كل حال ...

وصل القطار إلى سيركجي، نزلت من القطار المرأة ذات المقبـرة العائلية، وضعت طفلها على حضنها وذهبت إلى «مديرية تشغيل وإيجاد العمل للقوى العاملة»*.

* * *

(*) مديرية الشؤون الإجتماعية والعمل.

طابق للإيجار

فتشوه تفتيشاً دقيقاً، أخرجوا الدبوسين المغروزين تحت ياقة سترته. أخذوا قلمه الحبر وقلمه الرصاص، بطاقة هويته، دفتر الجيب، القداحة، وكل شيء. أخذوا زنار بنطاله. ونزعوا رباطي حذائه.

بعد عبوره ممراً ضيقاً متبوعاً بشخصين دُسّ به في مكان ضيق وأغلق عليه الباب . دس يديه في جيبي بنطاله. تلفت حوله. كان يشتعل في السقف فوق رأسه تماماً مصباح أشبه بعين ميتة. مشى من الباب وحتى الجدار المقابل. بثلاثة خطوات أنهى طول الزنزانة. فتح ذراعيه، فلامست إحداهن أحد الجدارين الجانبيين بينما اصطدمت الأخرى بالجدار الثاني. فأطلق زفرةً مُحدثاً صوتاً «بوف ف ف. .» ثم قال: «. . ولكْ . . . . بأمكم. .» فكر، ثم من جديد... إيه وماذا بعد؟ فكر من جديد... كانوا يقدمون الخبز له عبر ثقب بحجم اليد فوق الباب، ولدى قرعه على الباب شريطة ألايتكرر ذلك، كانوا يأخذونه إلى دورة المياه. أحصى عدد حجارة الزوايا الأربع على الأرض، قام بعملية الإحصاء هذه عدة مرات. إذ أنه لم يجد في الزنزانة مايمكن إحصاءه سوى هذه الحجارة، فأعاد إحصاءها مرة أخرى.

شبَّه البقع المتموِّجة التي تركتهافرشاة الطلاء على الجدران وبقايا الرطوبة، لعدد من الأشياء المختلفة، فهذه البقعة تشبه إمرأة عارية، وتلك هي جوبتر والأخرى جندي يحمل بندقية، وحين نظر إلى البقع ثانية تغيرت الأشياء فجوبتر

هذه المرة صارت شجرة، والشجرة نفسها صارت فيما بعد ثوراً هائجاً يشن هجوماً عنيفاً.

جاءته فكرة «ليته يوجد شيءٌ للقراءة. . » آه لو وُجِد شيء يمكن قراءته... لما تردد لحظة في أن يفعل ذلك.

فلو عثر على كتاب صعب ومعقد في الطب، لقرأه. أوكتاب عن قانون الغابات لقرأه. ولو وجد الإنجيل لما تردد أيضاً في قراءته.

أمضى فترة تأمل، أحصى حجارة الزوايا الأربعة، هل الوقت ليل أم نهار؟! كم هو تواق لمعرفة ذلك. ظل يميِّز خلال اليومين الأولين ولكنه في اليوم الثالث اختلط عليه الليل والنهار. لووجد كتاباً... لبقي يقرأ طوال الوقت... لووجد صحيفة أو أي شيء يمكن قراءته... ليته يغرق في نوم شتوي كما الأفاعي والدببة والقنافذ والضفادع، فلايفيق إلاعندما يفتحون الباب.

تساءل: « لماذا أحضروني إلى هنا؟». ثم أجاب على سؤاله: « من الواضح تماماً أنني ارتكبت إثماً ما، فهؤلاء ليسوا بالمجانين. . ها؟». راح يفكر بما فعله، ظل يفكر بشكل دائم، أحصى الحجارة الكائنة في الزوايا الأربعة على الأرض، فكر، لووقعت يده على شيء، أي شيء يمكن أن يقرأه، كتاب، صحيفة، أي شيء.

اقترب من الباب، رفع جسده مستنداً على أطراف أصابع قدميه، نظر من خلال الثقب، رأى صحيفة، إنها صحيفة، ... أليست صحيفة؟! نعم نعم إنها صحيفة ... إنها صحيفة عادية.

لم يفكر. لم يقم بإحصاء حجارة الأرض. ضحك، فرك إحدى يديه بالأخرى، مد يده عبر الثقب، مدها أكثر. ليته يستطيع أن يمسك بطرف الجريدة! أمسك بها.

أمسك بطرف الجريدة بإثنتين من أصابع يده. لابد أن هناك شيئاً ثقيلاً فوق

الجريدة. سحبها. ولكن السبابة والوسطى لاتفيان بالغرض مالم يشترك الإبهام معهما.

السبابة والوسطى كانتا ممسكتين بطرف الجريدة مثل فكي الملزمة. شد بقوة. فتمزقت الجريدة ولم يبق بين الأصبعين سوى قطعة منها، بقي بيده مثلث من الورق تمزق من طرف الجريدة. التمعت عيناه، نظر إلى قطعة الجريدة. إنها تحمل كتابة أولها وآخرها غير معروفين. تحت الكتابة إعلان يحتل عامودين. بدأ يقرأ بنهم يشبه هجوم الجائع للخبز.

« إن أكبر العقبات التي تقف حائلاً دون تقدمنا في سائر الميادين، والمنبع الرئيسي للبؤس الذي تعاني منه بلادنا اليوم، يكمنان في عدم اعتماد النظام السياسي على اسس صحيحة وسليمة، لذا ... »

الكتابة مقطوعة هنا، «تفو و و ه» قالها بنزق وراح يقرأ الإعلان الكائن تحت الكتابة: « طابق للإيجار بسعر بخس، طابق مريح يحتوى على ست غرف، يقع في النقطة المركزية في نيشان طاش، ويطل على الشارع الرئيسي، للإطلاع والاستفسار راجعوا الطابق العلوي في بناية صونار الكائنة مقابل الصيدلية.».

عاد إلى القراءة مرة أخرى:

« إن أكبر العقبات التي تقف حائلاً دون تقدمنا في ... »

انتهت الكتابة، وحل الإعلان محلها: « طابق للإيجار بسعر بخس ... »

هذه المرة راح يقرأ ببطء شديد، كلمة، كلمة، مقطعاً مقطعاً ... .

« إ ... ن أكـ ... بر ... العـ . .قبـ ... ات ... الـ ... تي ... »

« نيـ ... شان ... طا ... ش ... الـ ... مر ... كز ... ية. . ».

مهما حاول البطء كانت الكتابة تنتهي بسرعة. قرأها ثالثة ورابعة وخامسة

... حفظها على ظهر قلب. رددها دون النظر إلى الورقة. رددها كما لوكان يلقي خطاباً عبر مكبرات الصوت في إحدى الساحات العامة.

ثم أعاد ترديدها كما لوكان يغني واحدة من الأغنيات التي حفظ ألحانها. قالها كما لوكان يغني أغنية« عندما كنت ذاهباً إلى اسكودار، فاجأني المطر. . »استمتع بما فعل. بعد ذلك أعاد توزيع الكلمات التي حفظها على لحن أغنية «على ساحل الجزر».

يوم واحد. . اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... ثمانية وأربعون يوماً بالكمال والتمام ...

فُتح الباب في صباح اليوم الثامن والأربعين أخرجوه من الزنزانة عبر الممر الذي جاء منه. أدخلوه إلى غرفة كبيرة. سأله الرجل الجالس خلف الطاولة الكبيرة المغطاة بلوح من البللور:

- ماسمك؟

بدأ يرش الكلمات كما لو كان آلة:

« إن المنبع الأساسي لكل الآلام التي تعاني منها البلاد اليوم. . . . »

وقف الرجل الجالس خلف الطاولة، أمعن النظر في عيني المعتقل ثم قال:

- خذوه. . . .

أخرجوه ... نزل أدراج السلم، أصبحوا في الشارع. دخلوا إلى مبنى كبير أخر. جعلوه ينتظر حوالي عشر دقائق أمام أحد الأبواب. فتح الحاجب الباب. دخل إلى الصالون، فسأله المدعي العام:

- اسمكم؟.

انطلق الرجل يردد نفس الكلمات التي حفظها على لحن أغنية « لاسمح الله، لن أخرج من هذه الخمارة».

- « إن أكبر العقبات تكمن في عدم اعتماد النظام السياسي على اسس صحيحة وسليمة ...

أصلح المدعي العام من وضع نظارته :

- نسبتكم ؟!

رفع الرجل من نبرة صوته وراح يصرخ كما لوكان يلقي خطاباً في إحدى الساحات قائلاً :

- طابق للإيجار ... بسعر بخس ... إنه في النيشان طاش ... في النقطة المركزية ... يطل على ... الشارع الرئيسي ... راجعوا الطابق العلوي . . . . » .

التفت المدعي إلى كاتب الضبط وقال :

- اكتب ، لقد قررنا إخلاء سبيل المتهم الذي جيء به إلى هنا بناءً على الملف الوارد من مديرية الأمن ... . لأنه تبين لنا بأنه اعتقل خطأ نتيجة لتشابه الأسماء فقط .

أخرجوا الرجل من قاعة المحكمة ، . . خلال لحظات لحق به المدعى العام الذي خلع جبته على الفور . ثم اقترب من المتهم ومشى معه جنباً إلى جنب في الرواق قائلاً :

- عدم المؤاخذة ياسيدي ، منذ سبعة أشهر وأنا أبحث عن بيتٍ للسكن ، لايمكنكم أن تتصوروا مدى الضيق الذي أعانيه . كم هي إجرة الشقة التي تحدثتم عنها وعن عنوانها؟

انطلق الرجل يردد الكلمات التالية ، موزعة حسب لحن أغنية «أمان يابويجي» ...

- ... النظام السياسي على اسس صحيحة وسليمة ...

ثم راح يردد الأغنيـة بأعلى صـوته مطارداً المدعي العـام الذي هـم بالهـرب بسرعة:

- ... لابد للنظام السياسي أن يستند إلى اسس سليمة وصحيحة. لذا ... طابق للإيجار بسعرٍ بخسٍ...

* * *

علاقات الصداقة بين الدول

(عقد اجتماع في إحـــدى الصالات التابعة
لدائرة مجلس رئاسة وزراء دولة تورا كانسي
وقد ضم هذا الإجتماع كـلاً مـن رئيـس
مجلـس وزراء تورا كانسي ووزير الخارجية
وقـائـد الأركـان العامة ووزيـر الأوقـاف
وآخرين).

وزير خارجية تورانسي - رئيس الوزراء المحترم، أحب أن أوضح نقطة هامة كتعقيب على ماعرضته عليكم، إن خطورة هوبانتومولا على بلدنا تزداد يوماً إثر يوم، وقد وردتنا أخبار تفيد بأنهم بدأوا في الأونة الأخيرة بحشد جيوشهم في المناطق الحدودية فيما بين بلدينا. ولم يعد خافياً على أحد تغذية ملك هوبانتومولا لروح العداء الأبدي والأزلي ضد بلدنا.

- رئيس وزراء تورا كانسي - ياله من حيوان ... معنى ذلك أنه يضع عينيه على ترابنا... ها؟!

- وزير خارجية ت - نعم إنه يضعها.

- رئيس وزراء ت - لتقلع عيناه.

- وزير خارجية ت : لتقلع عيناه

رئيس وزراء ت - وهل فكرتم بالتدابير التي ستتخذ حيال ذلك ؟ بماذا يفكر قائد الأركان العامة؟

قائد الأركان العامة في ت - لقد كشفنا تحقيقاتنا على طول الشريط الحدودي.

رئيس وزراء ت - فعلنا خيراً، وغير ذلك؟

قائد الأركان العامة - وزعنا قواتنا التي كانت في المركز على طول الشريط الحدودي .

رئيس وزراء ت - فعلتم خيراً، وغير ذلك؟

قائد الأركان العامة في ت - لقد ألحقنا بالجيش دفعتين جديدتين .

رئيس وزراء ت - فعلنا خيراً، جيد، ولكن ماهي التدابير السياسية التي أخذناها؟ماهي التدابير التي يراها وزير الخارجية مناسبة لظرف كهذا؟

وزير خارجية ت - أحب أن أعرض أمام معالي سعادتكم يارئيسي المحترم، التدابير التي فكرنا بها، فهي في غاية الجدية . إذ أن ملك هوبانتو مولا ...

رئيس وزراء وزراء ت - أزاله الله عن وجه الأرض .

وزير أوقاف ت - آاااامـين . إنشـاء الله سيفطس في أقـرب وقـت ممكن . . أاااامـين...

رئيس وزراء ت - حسناً، وماذا حدث لعديم الشرف هذا؟!

وزير خارجية ت - بعد ثلاثة أيام سيحتفل ملك هوبانتو مولا بدخوله عامه الرابع والثمانين.

رئيس وزراء ت - هل ثبّت خازوقاً في الأرض هذا الحقير، وربط نفسه فيه، ألم يفطس إلى الأن ... .

وزير خارجية ت - إنني على قناعة بأن إرسالكم ببرقية تهنئة له بمناسبة دخوله عامه الرابع والثمانين لمَن قواعد بروتوكول الصداقة بين الدول. أقدم اقتراحي هذا أمام معالي سيادتكم سيدي رئيس الوزراء.

رئيس وزراء ت - ممتاز ... إنه تدبير مناسب، وفي مكانه.

وزير خارجية ت - لقد كتبت البرقية ... إنها جاهزه ياسيدي.

وزير خارجية ت «يقرأ» - صاحب السمو، المدرجان الرابع ملك هوبانتومولا، إن بلدكم يحتفل بتشريفكم لهذه الدنيا بعامكم الرابع والثمانين، وبهذه المناسبة ...

رئيس وزراء ت - أليس من الأصح أن تقول « بعدم وجود هذه المناسبة»؟!

وزير أوقاف ت - بدون شك.

وزير خارجية ت / يقرأ / - وبهذه المناسبة السعيدة لكلا البلدين الصديقين والشقيقين أبعث بإسمي شخصياً وبإسم تورا كانسي الذي استلم رئاسة مجلس وزرائها تهانينا ... .

رئيس وزراء ت - أضف كلمة «القلبية» ستصبح أجمل ...

وزير خارجية ت (يقرأ)- تهانينا القلبية، ونتمنى لحضرتكم العظيمة ولسلطنتكم وللأمة الهوبانتومولانية الديمومة والبقاء، وأتمنى أن تتفضلوا بقبول عواطفنا الجياشة ومحبتنا النابعة من القلب. رئيس وزراء توراكانسي: ڤوسيكا..».

رئيس وزراء ت - ممتاز ... لايوجد فيها أي خطأ نحوي ... .

وزير خارجية ت - نعم. لقد عرضتها على ولدي أيضاً ولم يجد فيها أي خطأ ... لقد كانت علاماته في النحو رائعة هذا العام ياسيدي ...

رئيس وزراء ت - النقاط والفواصل في مكانها الصحيح .. ها ...؟

وزير خارجية ت – كلها في مكانها الصحيح، لاتقلقوا ياسيدي ...

رئيس وزراء ت – دخيلك ... لتكن في مكانها ... . هيا هاتها لأوقع عليها . «يوقِّعُ» عجباً، هل تكفي هذه التدابير؟!

وزير خارجية ت – في هذه الفترة، ريثما نكون قد جهزنا أمورنا من أجل إزالة جسد ملك هوبانتومولا عن وجه الأرض عن طريق ...

رئيس وزراء ت – أضف كلمة « قذر» .

وزير خارجية ت – إزالة جسد هوبانتومولا القذر عن وجه الأرض عن طريق تحضير حادثة اغتيال له .

رئيس وزراء ت – آها !!! ... ياله من عمل رائع! ...

* * *

عقد اجتماع في إحدى صالات قصر هوبانتومولاالملكي وقد ضمَّ هذا الاجتماع كلاً من الملك ووزير الخارجية ووزير الحربية ووزير الأوقاف وغيرهم...

وزير خارجية هوبانتومولا – كما ذكرت في بلاغي الذي قدمته لجلالتكم المعظمة أحب أن أكرر من جديد، فلقد زادت توراكانسي من تحضيراتها الحربية، ولازال رئيس وزراء توراكانسي مستمراً في سياسة العدوان تجاهنا .

ملك هوبانتومولا – ماهذا الغر ... ياله من ابن حرام ...

وزير أوقاف هـ – نعم ياسيدي ...

ملك هـ – على ماذا تقول نعم؟

وزير أوقاف هـ – مثلما تفضلتم وقلتم، أيتها الجلالة المعظمة .

ملك هـ – ماهي التدابير التي اتخذت حيال ذلك؟

وزير خارجية هـ – سأعرضها أمامكم ياسيدي، لقد جهزنا جواباً على برقية

رئيس وزراء توراكانسي التي بعثها بمناسبة عيد ميلادك الرابع والثمانين، فإذا سمحتْ لي دولتكم المعظمة ياسيدي، فسأقرأ عليكم ماحضرناه.

ملك هـ – لِتُقرأ.

وزير خارجية هـ – على رأسي ياسيدي... (يقرأ) –: الإكسلانس ڤوسيكا رئيس وزراء توراكانسي، إن برقية التهنئة...

ملك هـ – أضف كلمة «الأنيقة»...

رئيس خارجية هـ – إن برقية التهنئة الأنيقة التي تفضلتم بإرسالها لي بمناسبة عيد ميلادي، أثارت عواطفي الجياشة، أتمنى وأنا أستعرض برقيتكم، من كل قلبي استمرار علاقات الصداقة والمصير المشترك...

ملك هـ – أضف كلمة «التاريخي»...

وزير خارجية هـ ـ على رأسي ياسيدي / يقرأ / . . علاقات الصداقات والمصير التاريخي المشترك الذي يربط بين دولتينا...

ملك هـ – لو وضعت كلمة «الصديقتين» لكان أفضل.

وزير خارجية هـ – الذي يربط بين دولتينا الصديقتين. وفي هذه المناسبة أحب أن أعرب عن فرحتي وأنا أعمل على تمتين علاقات الصداقة بين دولتينا، كما أنني أشعر بالسعادة وأنا أعبر لكم ولشعب توراكانسي الذي كنتم خير من مثله، عن امتناني وشكري...

ملك هـ – يجب أن تقول «الجزيل»

وزير خارجية هـ – عن امتناني وشكري الجزيل، المدرجان الرابع ملك هوبانتومولا . . ».

ملك هـ – أعطني لأوقعها. هل تجدون أن هذا التدبير سيفي بالغرض؟

وزير خارجية هـ – بعد خمسة عشر يوماً ستحتفل توراكانسي بعيد استقلالها العشرين...

ملك هـ - ليتها لم تستقل ...

وزير خارجية هـ - حضرنا برقية تهنئة بهذه المناسبة ياسيدي ...

ملك هـ - ممتاز ... طبعاً عبرت فيها وبإحساس « خالص» عن الخدمات التي قدمها شعب توراكانسي الحقير للسلم العالمي .

وزير خارجية هـ - طبعاً ياسيدي ...

ملك هـ - اقرأ فقط المقطع الأخير .

وزير خارجية هـ - (يقرأ) : بمناسبة عيد استقلال توراكانسي الشقيقة أبعث لكم بإسمي شخصياً وبإسم شعبي برقية تهنئة لاعبر لكم عن خالص حبي وتقديري ... الإكسلانس ڤوسيكا ...

ملك هـ - يكفي ، مفهوم ... آه لو يقع هذا الغر المدعو ڤوسيكا ، لأعلكه بين أسناني ... عديم الشرف هذا ...

وزير أوقاف هـ - بإذن الله سيقع بيديك ، وستنال مرادك من العُصاة . ياسيدي ... إنني وإخواني في الدين ندعو الله ليل نهار من أجل هذا ياسيدي ...

ملك هـ - ممتاز ... استمروا بدعائكم ... حضرة وزير الحربية ماذا فعلتم بهذا الشأن؟

وزير حربية هـ - جُمِعت كل المدافع والبنادق ونُظّفتْ ياسيدي ، لقد منعنا الإجازات عن كل أفراد الجيش ، كما أن جنودنا مستنفرون منذ ثمانية أشهر ، يسهرون على سلاحهم وينتظرون إشارتكم ياسيدي .

ملك هـ - وماذا ينتظرون؟

وزير حربية هـ - ارادة حضرتكم المبجلة ياسيدي .

ملك هـ - ممتااااازززز . . لينتظروا ...

* * *

(عقد اجتماع في إحدى صالات مبنى رئاسة مجلس وزراء توراكانسي ضمَّ رئيس الـوزراء ووزير الخارجية ووزير الداخلية وقائد الأركان العامة وأخرين ...)

رئيس وزراء ت – ماهي آخر أخبـــار أعدائنا؟

قائد الأركان العامة في ت – مع الأسف، لم تصلنا أخبار سارة، فلقد أصدر ملك هوبانتومولا فرماناً بضمِّ ثلاث فئات عسكرية جديدة لجيشه ...

رئيس وزراء ت – واه... كـذا ابن كـذا ... واه، آه لويقع بيـدي هذا القـواد، سأشرب دمه ... سأشربه.

وزير أوقاف ت – إن شاء الله ... أااااامين. . ! ...

رئيس وزراء ت – حسناً وماهي التدابير الجديدة؟!

قائد الأركان العامة في ت – نحن أيضاً أخذنا الأشياء من الأشياء وشيأناها تشييئاً، وبعد ذلك ...

رئيس وزراء ت – لاأسـأل عن التـدابيـر العـسكرية، لاشك بأن الخـبـراء سيقـومـون بواجبـهم عندمـا تقتضي الضرورة ... مـاهي التدابيـر السيـاسيـة التي ستتخذ؟!.

وزير خارجية ت – إننا مستمرون بعلاقاتنا السياسية على أعلى مستوى من الصداقة، فكما تعلمون، لقد تبادلنا خلال الشهر الماضي تسع برقيات تهنئة.

رئيس وزراء ت – ممتاز ...

وزير خارجية ت – لقد بعثنا برقية تهنئة بمناسبة زواج ابن ملك هوبانتومولا وتمنينا له فيها دوام السعادة.

رئيس وزراء ت – فعلنا خيراً. . وغير ذلك؟!

وزير خارجية ت: بعثنا برقية تهنئة بمناسبة الذكرى السنوية لجلوس ملك هوبانتومولا على عرشه.

رئيس وزراء ت – فعلنا خيراً، إن شاء الله، سينقلب هذا العرش على رأس هذا الكلب ...

وزير الأوقاف – أ ا ا ا ا ا مين ...

رئيس وزراء ت – حسناً، ألم تأخذوا تدابير أخرى مختلفة؟!

وزير خارجية ت – سنأخذ ... إننا نفكر ياسيدي الرئيس، ولكننا لانجد مناسبة لذلك ...

رئيس وزراء ت – يجب أن تجدوا، إن من أهم أعمال وزير الخارجية هي نبش المناسبات الجديدة.

وزير خارجية ت – طبعاً أيها الرئيس، اطمئن ياسيدي، فلقد نبشنا الكثير من المناسبات حتى الأن.

رئيس وزراء ت – لكن الأعداء لايهدؤن، أنت تعلم بأن ملك هوبانتومولا قد بعث فيما مضى برقية تعزية بمناسبة وفاة حماتي، أعرب فيها عن حزنه الشديد. وبذلك وجد مناسبة لتجديد الصداقة، إن الكلب ابن الكلب يستغل موت حماتي لأغراض سياسية.

قائد الأركان العامة في هـ – في نفس اليوم الذي وصلتنا فيه برقية التعزية بوفاة حماتكم المصون. حلقت طائرات هوبانتومولا فوق أجوائنا.

وزير خارجية هـ – إنه شيء طبيعي، فلاتنسى أيضاً بأنهم قد ألقوا القبض على عنصر من شبكة التجسس التابعة لنا في هوبانتومولا، في نفس الوقت الذي بعثنا فيه برقية تهنئة بمناسبة ولادة حفيده.

رئيس وزراء ت – كم من الوقت فات على إرسال آخر برقية تهنئة لملك هوبانتومولا، من أجل تجديد علاقات الصداقة فيما بيننا؟!

وزير خارجية ت – لم يفت اسبوع بعد ...

رئيس وزراء ت - مستحيل ... إنه لمن الخطأ إغفال تجديد علاقات الصداقة فيما بيننا كل هذه المدة من الزمن، ولاتنسى أنهم يشكون بنا كثيراً. أين وزارة خارجيتنا . . هل هي نائمة؟! يجب أن ننبش أية ذكرى من أجل إرسال برقية تهنئة، هيا لنفكر معاً . . مثلاً ... مثلاً ... مثلاً ...

قائد الأركان العامة في ت - «وهو يتمشى»: مثلاً ... مثلاً ... مثلاً ...

وزير أوقاف ت - «يضع يده على صدغه وهو يفكر» = مثلاً ... مثلاً ... مثلاً ...

وزير خارجية ت - «وهو يضرب كفاً بكف»: مثلاً ... مثلاً ... مثلاً ...

الجميع في أن واحد: مثلاً ... مثلاً ... مثلاً ... ثملاً ... ثملاً ... ثملاً ... لمثاً ... لمثاً ... لمثاً ... مثلاً ... مثلاً ... ثملاً ... ثملاً ... لمثاً ... لمثاً ... لمثاً

رئيس وزراء ت - ها ... وجدتها ... بمناسبة الذكرى السنوية لتوقيع معاهدة التجارة بيننا وبين ملك هوبانتومولا ...

وزير تجارة ت - لم يمض عام على ذلك بعد ياسيدي الرئيس، لقد وقِّعت هذه المعاهدة منذ ثمانية أشهر فقط.

رئيس وزراء ت - ليكن ... لنبعث برقية تهنئة بمناسبة مرور ثمانية أشهر على توقيع المعاهدة التجارية ... وبهذه المناسبة سنعبر لهم عن إحساسنا بالصداقة التي بيننا ...

قائد الأركان العامة في ت - وفي هذه الأثناء نكون قد حشدنا ألوية الدبابات على الحدود، أليس كذلك؟!

رئيس وزراء ت - طبعاً، لينطلق لواء الدبابات في اللحظة التي ستُبعث فيها البرقية ولنرسل أيضاً قوات إضافية احتياطية ... آه . . لويقع ملك هوبانتومولا بيدي ... لكي أذبحه من الوريد إلى الوريد ... عديم الشرف ... جيد . . وبعد هذا يجب أن نبعث برقية أخرى ... أوجدوا أية مناسبة ... مناسبة ... مناسبة ...

الجميع في أن واحد «يتمشون» : مناسبة ... مناسبة ... مناسبة ... سبامنة سبامنة ... سبامنة ... بناسمة ... بناسمة ... مناسبة ... مناسبة ... سبامنة ... سبامنة ... بناسمة ... بناسمة ...

وزير زراعة ت - مارأيكم ... إن هوبانتومولا تعاني الجفاف بسبب قلة الأمطار ... وقد وردت إلينا أخبار تقول : بأنها قد أمطرت عندهم يوم الإثنين الماضي .

رئيس وزراء ت - لتجرفهم السيول . دون أن ينجو أيٌّ منهم ... وليغرق هذا الملك أيضاً .

وزير زراعة ت - برقية تهنئة بمناسبة هطول الأمطار المباركة ، وبهذه المناسبة ...

رئيس وزراء ت - حسناً ... اكتبوا ... « جلالة . . المدرجان الرابع ملك هوبانتومولا بمناسبة هطول المطر على تراب البلد الصديق هوبانتومولا ، بعد غياب طال كثيراً ، وسبَّبَ حالة من الجفاف ، نبعث إليكم ببرقية تهنئة ، لنعبر لجلالتكم عن سرورنا البالغ ... بهذه المناسبة ... »

(عُقِدَ اجتماعٌ في قصر ملك هوبانتومولا يضم الملك ووزير الخارجية ، ووزير الزراعة ووزير الحربية وأخرين ...)

وزير الحربية هـ - أيها الملك المبجل ، لقد تم اثبات صحة الأخبار التي عرضتها من قبل على دولتكم العليا . إن المعلومات التي يرسلها عملاؤنا في توراكانسي متطابقة جداً فيما بينها . وقد اثبتت جميعها سوء نية رئيس وزراء توراكانسي .

ملك هـ - ياللجرو ! ... والله إن أمسكت بهذا الرجل ... لن أكون أنا . . مدرجان الرابع ملك هوبانتومولا إن لم أجعل أمه تبكي عليه . . والأن ماهي الخطوات التي تفكرون بها ؟ ! .

وزير حربية هـ - حضـ . . حضـ . . حضـ ... حضرة الملك المبجل إن الهجوم

خير وسيلة للدفاع ولهذا أقترح ياحضـ... حضـ... حضرة الملك المبجل أن نبادر نحن ونشن هجوماً عليهم ...

ملك هـ - وماذا عن التدابير السياسية؟

وزير خارجية هـ - سأفكر ياسيدي.

ملك هـ - لنفكر ...

الجميع في أن واحد - لنفكر ... لنفكر ... لنفكر ... هيا . . لنفكر ... هيا . . هيا ... هيا ... لنفكر ...

وزير خارجية هـ - الصيغة جاهزة ياسيدي ...

ملك هـ - اقرأ الصيغة ...

وزير خارجية هـ - على رأسي ياحضـ... حضـ... حض ... حضرة الملك المبجل ... «يقرأ عن ظهر قلب»: « الإكسلانس ڤوسيكا، رئيس وزراء توراكانسي نقطة نقطة نقطة، بإسمي أنا شخصياً وبإسم شعبي أحب أن أعبر عن شكري وامتناني لشعب توراكانسي لما أظهره من محبة ووفاء وبهذه المناسبة ... »

ملك هـ- حسناً، وماهي المناسبة؟ يجب أن نجد مناسبة ... مناسبة ... مناسبة ...

الجميع في أن واحد - مناسبة ... مناسبة ... مناسبة ... سبامنة ... سبامنة ... سبامنة ... بناسمة ... بناسمة ... بناسمة ... مناسبة ... مناسبة ...

ملك هـ - حسناً. . بأية مناسبة؟ يجب أن نجد مناسبةً ... ليجد لنا وزير خارجيتنا مناسبة ما ... بمناسبة العام الجديد ...

وزير خارجية هـ - بعثنا ببرقية تهنئة بمناسبة العام الجديد ياسيدي لقد بعثنا في كل المناسبات القومية، وبمناسبة قلع ضرس ولده الصغير أيضاً بعثنا ياحضـ... حضـ... حضـ... حضرة الملك المبجل ...

ملك هـ - آه. . آه. . ولك. . آااه... لو أمسك هذا القواد، لماذا لم تنجح كل محولات اغتياله؟ لم نستطع أن نقبر هذا الحقير بأية وسيلة من الوسائل... حسناً، بأية مناسبة سنبعث برقية التهنئة... ماهذه الخارجية ياروحي... أوجدوا مناسبة ما... هيا. . وإلاّ فسأعزلكم...

وزير خارجية هـ - وجدتها...

ملك هـ - وماذا وجدت؟!

وزير زراعة هـ - لقد وجدت المناسبة ياسيدي. . إن أخر المعلومات التي حصلت عليها وزارتنا تفيد بأنه قد تم انتاج أول محصول للخيار في هذا العام في توراكانسي. وقد ألقى رئيس وزراء توراكانسي خطاباً بهذه المناسبة.

وزير زراعة هـ - لنبعث برقية تهنئة بمناسبة انتاج أول محصول للخيار هذا العام.

وزير خارجية هـ - نستطيع إرسال البرقية...

ملك هـ - ممتاز. . اقرأ البرقية إذاً...

وزير خارجية هـ- ممتاز... اقرأ البرقية إذاً...

وزير خارجية هـ - «الإكسلانس ڤوسيكا، رئيس مجلس وزراء توراكانسي إننا نشعر بالفرح والسعادة لأن توراكانسي التي يْربطنا بها المصير التاريخي المشترك، قد أنتجت أول محصول للخيار، وبهذه المناسبة نتمنى لحضرة دولتكم المبجلة ولشخصكم الكريم الذي كان خير من مثَّل شعب توراكانسي أطيب التمنيات وأستغل هذه المناسبة لأعبر لكم فيها من جديد عن حبي لكم.

ملك هـ - ليبدُأ بالهجوم، حال إرسال البرقية.

- وزير حربية هـ - وإلاّ فإنهم سيبدؤون هم بالهجوم ياحضرة الملك المبجل.

(تُسمع أصوات ضجيج وجلبة: كورررر... كورررر ... باط.. باط ... باط.. كوررر...

ملك هـ - ماهذا؟! .. ماذا يحدث؟! ... ماهذا الضجيج؟..

وزير حربية هـ - لقد تأخرنا ... لقد بدؤوا هم بشن الهجوم علينا ... إنهم قادمون نيران المدافع ... المدافع ... المدافع ...

ملك هـ - البرقية ...

وزير الخارجية - بمناسبة تعرضكم للغزو ... أحب أن أعرب لكم بإحساس مفعم بالمحبةً وبهذه المناسبة أبعث خالص .. شك.. شك.. شكري... ياحضـ... حضـ... حضـ... حضرة الملك المبجل! ...

* * *

سيزيف بثماني قوائم

لاشك بأننا جميعاً قد تعرضنا لنفس الموقف، هناك نموذج من الناس، ماأن نلتقي بهم حتى نشعر بالبرودة تجاههم، وذلك الشعور قد يكون نابعاً من مظهرهم القبيح، أومن غلاظتهم، أومن سلوكهم الفج، أوقد يكون نابعاً من سبب نعجز عن تفسيره.

لسبب من الأسباب لانشعر بأية مودة تجاههم. ولكن ماأن نبدأ مع هؤلاء الأشخاص ونتوغل بالحديث أكثر وأكثر حتى تتغير مشاعرنا تجاههم وتنكشف أمامنا عوالمهم الداخلية الجميلة، ويظهر بأن لهؤلاء ذوي المظاهر الباردة وغير المحبوبة، عوالم داخلية دافئة وجميلة ولكنها مستترة داخل تلك المظاهر الخارجية ومن أجل إظهار العوالم الداخلية الدافئة التي تستتر تحت تلك المظاهر الخارجية القبيحة والشائكة والباردة؛ يجب التحدث مع هؤلاء الأشخاص أوأن نرى أعمالهم أوسلوكهم، وماأكثر مايبرز مدى روعة وجمال هؤلاء الأشخاص حين يكدحون وقد علقوا أرواحهم بأسنانهم.

هناك أيضاً حيوانات وحشرات لانحبها، ننفر منها، نخافها نقرف منها، ونشمئز منها، مثل الأفاعي والفئران والعقارب والديدان ذوات الأربعين وغيرها ... ماهو هذا الشعور؟ إنه ليس خوفاً بالمعنى الكامل وليس نفوراً ولاهو احتقار. ربما هو مزيج من كل ذلك ... إنه شعور لم يتم التوصل بعد إلى تحديد اسمه تحديداً دقيقاً ...

أنا لاأحب العناكب والحشرات التي من هذه الفصيلة، فما أن أرى واحدة من

العناكب حتى يتملكني شعور من الاشمئزاز أو القرف، إنه شعور لم يتحدد اسمه بعد وحينما أعثر على هذه المخلوقات ذوات القوائم الكثيرة، أزيلها من الوجود، إني أشعر بالإشمئزاز لدى رؤيتي لأنواع العناكب أكثر مما أشعر به عندما أرى أفعى أوفأرة أوذبابة.

البارحة، لم يكن معنا أية نقود في البيت، وبما أنه يصادف يوم جمعة ... فقد كان يتوجب علي أن أكسب شيئاً من المال، قل أوكثر، حتى نستطيع كأسرة ذات أطفال أن نمضي يومي السبت والأحد. بإعتبار يوم الإثنين هو أول يوم بالإسبوع فبإستطاعتي الحصول على المال من أي مصدر كان. إن المصدر الأول لكسب المال بالنسبة لي هو كتابة القصة ... ولواستطعت أن أكتب قصة خلال يوم الجمعة، فسيكون بإستطاعتي تسليمها للمجلة والحصول على النقود.

جلست خلف طاولتي صباح يوم الجمعة عازماً على كتابة قصة. فتحت على ملفاتي التي أدوِّن فيها مواضيع القصص. ثلاثة ملفات ملأى بالقصص ... قلبت الأوراق ورقة ورقة، نظرت إلى مواضيع القصص التي سبق أن دونتها. لم يكن قد نضج واختمر برأسي أي من هذه المواضيع، يوجد بينها مواضيع كنت قد دونتها منذ خمس أوعشر سنوات، ولكني لم أكن هذا اليوم بوضع يمكنني من كتابة تلك الكتابات، ربما كان يومي سيئاً للغاية ... ولكنني مجبر على كتابة القصة ... يجب أن أحصل على النقود، رحت أعصر دماغي ... ماذا لوكتبت هذه القصة ... لا ... ليست جميلة ... أأكتب هذه ... كلا ... وهذه أيضاً لاتنفع، ليس بإستطاعة أحد فهم ومعرفة مدى العذاب الذي كنت أقاسيه وأنا أعتصر وأتلَّوى إلاَّ أولئك الذين يضطرون لكسب قوت يومهم من الكتابة في بلدٍ من البلدان المتخلفة ... ليتها كانت مقالة صحفية ... أوخاطرة ... لكنها ليست كذلك، ينبغي أن تكون قصة ... وذلك يعني أنها عملية خلق وإبداع ... إنه عمل في غاية الصعوبة ...

أجلس على الكرسي وأدور يمنةً وشمالاً، أعقاب السجائر، التي دخنتها وأنا

أشعل السيجارة من سابقتها دونما توقف، ملأت الطبق النحاسي الذي أمامي ولم يعد يتسع للمزيد منها(إنه الطبق الكبير الذي استخدمته بدلاً من المَنْفَضَةَ) وكنت أشرب شاياً.

يرن الجرس، لن يسمعوا من الداخل ... كدت أمسك بطرف القصة حين جاء هذا الجرس فبعثر أفكاري وشتتها، رَنَ الجرس مرة أخرى، لماذا لايسمعون صوت الجرس؟ وعندما رَنَ للمرة الثالثة، قمت وفتحت الباب، كان ابن الجيران يريد غرضاً ما ...

أجلس خلف الطاولة ... وفي هذه المرة يصدح المذياع بأغنية من الطراز التركي وكانت سيئة للغاية. ليتها تنتهي ... ليتها تنتهي ... لاأريد أن أقوم من مكاني كي لاتتشتت أفكار القصة التي تكشفت في ذهني ... أقوم من مكاني وأطفىء المذياع ...

هذه المرة يترامى إلى سمعي ضجيجٌ يتصاعد من أولادي الذين في الداخل، ... إن صرخت وقلت لهم « اسكتوا »، فإنهم سيتضايقون مني ... قد يتضايق الجميع مني . . أما أنا فلاأستطيع أن أتضايق منهم، لأنهم على حق ... لاحسب تصورهم فقط . . بل إنهم محقون فعلاً ...

يقرع الجرس من جديد ... جاء بائع الحليب ... القصة ... الحليب ... بائع الماء يصرخ في الأسفل: « ماء ... ماء ... » أنادي على الذين في الداخل قائلاً: « لقد جاء بائع الماء» .

« عندنا ماء ... لسنا بحاجة إليه ... ليأتِ غداً . . »

أنادي على بائع الماء الذي في الأسفل: « يوجد عندهم، احضر لهم الماء غداً . . » .

إني مضطر لكتابة القصة اليوم ...

يأتي أحد الذين في الداخل، أَقْرَبَهم إليَّ، أعني، من ينبغي أن يكون أقربهم

إلي . . يأتي ليقول لي شيئاً... لايمكن الإفصاح عنه، ولاحتى كتابته، بعد كلام كهذا، لابد لي من أن أقيم في أحد بيوت الإستجمام لمدة شهر إذا ماأردت أن أعود إلى رشدي... غير أني مضطر اليوم لكتابة قصة، وأن أقبض ثمنها... أرد على الذي حدثني، بكلام قاسٍ جداً، مما جعله يغضب مني كثيراً، ولكن لابأس عليه فهو يستطيع، إن غضب، أن يجلس في الداخل مغموراً بغضبه، ويمكن أن يبكي أيضاً، ويمكن أن يقوم بنزهة ترفهٍّ عنه، أما أنا، فمضطر للبقاء جالساً لكي أكتب... ولكني لاأستطيع أن أكتب قصة، إذا ماجرحت شعور أحدهم وهذه مسألة أخرى.

ذهبت إلى المرحاض، ... ربما لم يكن ضرورياً ذهابي إلى المرحاض... لكني ذهبت . رأيت على قاعدة حوض الحمام عنكبوتاً صغيراً، إنه عنكبوت ذو بطن أحمر كحمرة الحناء، لم يكن من ذلك النوع المعروف من العناكب التي تنسج شباكها على الجدران. إنه من نوع آخر...

يحدث من حين لآخر أن أرى بعض الحشرات في هذا الحوض، وفي حالة كهذه، كنت أدلق طاسة ماء في الحوض مما يوقع الحشرات في تيار الماء فتنجرف وتذهب من خلال الثقب الكائن في أسفل الحوض.

في ذلك اليوم لم أدلق الماء، كان العنكبوت يحاول الخلاص عن طريق تسلق جدار الحوض الناصع البياض، يتسلق قليلاً ثم يقع لأن أرجله لاتستطيع أن تتمسك بجدار البورسلان الأملس. فيقع... ولكنه يتسلق من جديد... فيقع أيضاً... ممتاز، ليقع... على كل حال لن يستطيع هذا العنكبوت أن ينقذ نفسه مهما فعل، وهذا ماجعلني أمتنع عن دلق كمية من الماء لتجرف العنكبوت وتخرجه من ثقب الحوض السفلي. وفضلاً عن ذلك فأنا لن أقتله عن طريق سحقه... وذلك لأنني مقتنع بأن الموت نفسه سيكون إنقاذاً لهذا العنكبوت. أمتنع عن قتله وبالتالي عن تحريره من زنزانته البيضاء، لن يتحرر أبداً... أترك العنكبوت الصغير في سجنه الناصع البياض...

أجلس خلف الطاولة ... أقلب صفحات الملفات التي تحوي مواضيع القصص. إنني أكتب القصة منذ سنين، وأستطيع أن أصفّ الكلمات اعتماداً على خبرتي الطويلة، فتخرج قصة جديدة إلى الوجود. ولكن فعل ذلك مستحيل بالنسبة لكاتب خبير، إن الكتاب الجدد يستطيعون أن يصفوا الكلمات بجانب بعضها البعض لإخراج قصة ما ولكن الكتّاب القدامى يتعذر عليهم فعل ذلك لأن العيون مفتوحة عليهم. أ و ف ف ف ... يجب أن أكتب قصة جيدة، إنني مضطر للكتابة. الكاتب، هو الإنسان الذي يأكل دماغه، ويطعم أسرته منه.

- هيا إلى الطعام.

هانحن نتناول طعام الغداء، ولايلوح في الأفق أي أثر لأي قصة.

أجلس خلف طاولتي بعد طعام الغذاء. لوأكتب هذه ... سيتخلى عني أول من سيتخلى أولئك الذين يظهرون لي المودة أكثر من كل الناس، وهم يقولون:

« ماعاد يكتب مثلما كان يكتب من قبل». وسيثأرون بطريقة هم أنفسهم لن يكونوا واعين لها. . فصاحب المجلة الذي يطالبني بالكتابة بإلحاح، مثلاً، سيكون سعيداً جداً إذا كتبت قصة رديئة. وسيقول في أوساطه: « أين قصصه الأولى ... لم يعد قادراً على الكتابة كما كان يكتب في السابق». إنه مستعد لأن يرفض حتى ولو كتبت بالمستوى السابق، إنني مضطر لكتابة ماهو أفضل.

أذهب إلى المرحاض، ولكن لماذا؟ . . لالشيء ... إنني أذهب وفقط ... مازال العنكبوت في حوض الحمام ... لم يتحرر بعد من زنزانته البيضاء ياسلام ... ليكن ... يتسلق ... ويقع ... يتسلق ثانية ... مهما فعل فلن يتحرر من هذا البئر الأبيض. بماذا يفيدني قتله، ألاأنقذه من عذابه هذا؟! ...

لقد عرّفوا الإنسان بأشكال مختلفة، منهم من قال: « إنه حيوان ضاحك». ومنهم من قال: « أنا أفكر إذاً أنا موجود». ومنهم من قال: « إنه حيوان مفكر».

وقيل أيضاً: « الإنسان، حيوان ناطق». وقالوا أيضاً: « الإنسان أنضج المخلوقات وأكملها». وماأكثر ماقاله الناس عن الإنسان.

أما بالنسبة لي أنا، الإنسان هو الحيوان الذي يمارس التعذيب. لأنه لايوجد أي مخلوق يمارس التعذيب إلاّ الإنسان، ولكن هذا التعريف أيضاً غير تام، والأصح أن يكون كالتالي: « الإنسان هو الحيوان المعذَّب الذي يمارس التعذيب».

أترك العنكبوت بعذابه وأعود إلى عذابي. بعد قليل سيحل الظلام، متى سأكتب القصة؟! أنتقي موضوع قصة يثير إعجابي أوالتي تميل لأن تكون مقبولة، أضعها أمامي وأحاول بناء مخطط للقصة، يُقرع الباب من جديد ... تأتي أصوات صاخبة من الداخل... أحدهم يتشاجر مع الآخرين...

يأتي ضيف إنه صديقي... القصة... نجلس ونشرب الشاي ... ويبدأ الكلام... الكلام... الكلام... عجباً، هل أنا قادر على إقراضه عشرين ليرة... معنى هذا أن حاله أسوأ من حالي... ثم أقرضه المبلغ...

القصة... جاء جابي الكهرباء ... « اتركوا الإيصال وسنقوم بتسديده فيما بعد». . الجرس... الصوت... القصة... العنكبوت في الحمام...

– هيا إلى الطعام.

وأراقب العنكبوت وأنا أغسل يدي في المغسلة الموجودة في الحمام. مازال يتسلق، ومازال يقع فيتدحرج... ومازال يعاود التسلق...

نتناول طعام العشاء، وبعد العشاء... أنا لست رجلاً صعب الطباع ولست رجلاً عابساً فلِمَ لاأضحك وألعب مع الأطفال قليلاً...

ومن جديد يحضر ثلاثة ضيوف، أتركهم لبرهة وأذهب إلى الحمام... أنظر إلى العنكبوت، إنه يرتجف. . ياسلام... لن يستطيع الخلاص... يذهب الضيوف، وينام أهل البيت، جميع من في البيت يغرق في النوم الآن.

العنكبوت في الحمام وأنا خلف الطاولة.

انتهى أيضاً البث الإذاعي ... ياسلام ... صمت ... الآن أستطيع أن أكتب قصة جيدة.

أرسم العديد من مخططات القصص ... ولكن. . لايعجبني أي من هذه المخططات التي رسمتها، مازالوا في الطور الجنيني ولم يتطوروا بعد... أبدأ بالكتابة ... أخفق ... أترك مابدأت به وأنتقل إلى موضوع آخر.

هذه الليلة سأكتب القصة، وغداً السبت، سأسلّمها في الصباح الباكر، وأقبض النقود من المجلة ... وإلاّ، فسنبقى يوم الأحد دون نقود.

يغزوني النعاس بشدة، أقوم وأتجول في الغرفة، أذهب إلى الحمام وأغسل وجهي بالماء البارد كي أطرد النعاس، لازال العنكبوت في الحوض لايستطيع النجاة.

أعود إلى طاولتي، هذه القصة ليست مضحكة إطلاقاً، والقراء يريدون مني أن أضحكهم، وهذا بالذات هو السبب الذي يجعل صاحب المجلة يدفع مالاً مقابل قصصي...

يهوي رأسي فوق الأوراق، ثم يصطدم بالطاولة عدة مرات.

أنظر إلى الساعة، إنها الثالثة والنصف.

لن أقدر على الكتابة بهذا الرأس الناعس، أفضل شيء الآن هو النوم والنهوض في الصباح الباكر لكتابة القصة. لقد أوشكت على الإنتهاء... وقد تتطور القصة خلال النوم. فقد سبق لعدد من القصص أن تطورت في مخيلتي أثناء النوم، توجهت إلى الحمام قبل النوم. نظرت إلى العنكبوت، ثم نظرت ثانية. ولم أستطع الخروج من الحمام. كنت في البداية أراقب تسلق العنكبوت على الجدار دون مبالاة، ولكن ذلك الجهد الذي تبذله هذه الحشرة الصغيرة، وقد علقت روحها بأسنانها، قد بدأ يثير إهتمامي ويجذب انتباهي أكثر فأكثر. غادرني النعاس تماماً ورحت أراقب العنكبوت، جلست على حافة الحوض.

كان جسمه مؤلف من انتفاخين، الانتفاخ الذي في المؤخرة كان أحمرَ وأكبر من الأمامي الذي كان بلون الحناء، له ثماني قوائم، أربع في الجهة اليسرى وأربع في الجهة اليمنى... إنه يمد تلك القوائم الثمانية كما لوكان يريد أن يخترق بها جدار البورسلان الأبيض، بقوة وتصميم، يتسلق ويتسلق ويتـ... سلـ... ثم يقع... يتخبط في الماء المتجمع في قاع الحوض، يتخلص من الماء... وبعد أن ينتفض قليلاً، يقف ليأخذ قسطاً من الراحة... ليستجمع قواه، وبعد ذلك يعاود البدء بعملية التسلق من جديد... يتسلق، يتسلق، يتـ... سلـ... ويقع. يقع في هذه المرة على ظهره، تتحرك قوائمه الثمانية في الهواء دون توقف، ... ينجح في جعل إحدى قوائمه تلامس جسماً صلباً، ويصحح من وضعه معتمداً على هذا الجسم الصلب. ثم يقف على قوائمه. يبقى واقفاً دون حراك. واضح أنه ماعاد يقوى على الحركة... فلقد أنهكه العمل الدؤوب خلال مايزيد على العشرين ساعة، في سبيل الخلاص من هذه الزنزانة البيضاء. لابد أنه ينتظر الموت... لقد ترك نفسه للموت... لا... ذلك ليس صحيحاً، هاقد عاد إلى الحركة، إنه يمشي، عاود عملية التسلق، يتسلق... يتسلق... تَزِلُّ قوائمه فجأة ويقع...

استغرقت تماماً... إنني ممتلىء بالحيوية والنشاط، كما لوكنت قد أفقت لتوي من نوم عميق وطويل، أذهب إلى غرفتي، وأقلب في صفحات موسوعة «Britannica» «البريطانية» حتى أجد مادة «العنكبوت» أذهب ثانية إلى الحمام، مصطحباً المجلد الذي يحوي على المادة، مازال العنكبوت يتسلق ويتسلق... ويقع، فيتسلق من جديد، ويقع. أما أنا فقد كنت أقرأ ماكتب عن العنكبوت في الموسوعة البريطانية.

إن العنكبوت مصر على ألاتهزمه الجدران المستحيلة لتلك الزنزانة البيضاء التي سقط فيها. إنه لايستطيع أن يقبل الهزيمة ولايراها تليق بعنكبوتيته ولابقوائمه الثمانية.

وفي الحمام انقسمت إلى شخصين، قسمين من الـ«أنا» يقول أحدهما

للأخر : « أليست لديك شفقة، ذرة إنسانية؟ هيا اقتل هذا العنكبوت المسكين ليتحرر من عذابه» ولكن الـ«أنا» الأخر يرد على الأول قائلاً : « ليتحرر بنفسه، ليقم بتحرير نفسه بنفسه» .

غرقت في بحر من الصراع بيني وبين نفسي، من جهة أريد أن أنقذ العنكبوت عن طريق قتله، ولكن من جهة أخرى أشعر بقدر عظيم من الإحترام العميق لنضاله الدؤوب في معركة البقاء، مما يمنعني من قتله، يدي نفسها ترفض أن تمتد إليه... فالحياة من حق هذا السيزيف ذي القوائم الثمانية ...

- هيا ياسيزيف حرر نفسك... هيا اقهر هذه الجدران البيضاء لهذه الزنزانة .

إذا كنت تريد خلاص هذا العنكبوت فما عليك إلا أن تحمله وتخرجه من الحوض ثم تترك المسكين في مكان منبسط ... وهكذا يكون قد نال حريته ... لا ... لا ... لا ... أنا لاأستطيع إنقاذه ... لأنني أشمئز منه ... أقرف منه .

إني أشعر الأن بقدر كبير من الاحترام لهذا العنكبوت الذي كنت أشمئز منه أكثر من أي مخلوق أخر . ذلك لأنه أبدى كل هذا النضال في معركة الحياة... لأنني أحترمه . أريد انقاذه، ولأنني أقرف منه أريد موته . ولكنني لم أعد راضياً عن استمرار عذابه، فليمُت أوفلينقذ نفسه ... لو يتحرر من هنا، لويفعل هذا، لماترددت في قتله، في سحقه، لألقي به في البالوعة، ولكنه لاينجح في الخلاص كي أقتله ...

للحوض قاع وأربعة جدران، ثلاثة من هذه الجدران تنتصب بشكل عمودي وأما الرابع فمائل قليلاً .

حين أخفق العنكبوت في تسلق الجدران الثلاثة القائمة توجه نحو المائل، ياللأمر المخيف! إنه أمر مخيف حقاً!! . . ماالذي جعل العنكبوت يتوجه إلى الجدار المائل؟! إن العنكبوت، حشرة بلا وعي ولاغريزة ... وهذا السلوك ينم عما هو أعلى بكثير من الغريزة ... كيف استطاع العنكبوت أن يختار الجدار المائل؟إلى التجربة ... إلى التجربة ... راح يحاول تسلق الجدار المائل، بعدما أخفق في تسلق

جدران الزنزانة القائمة خلال مايزيد على عشرين ساعة ، إنه يتسلق ... هيا ... قطع أكثر من نصف المسافة ... يتوقف ليأخذ قسطاً من الراحة ، يعود للتسلق . حين يوشك على الوقوع يقلع عن التسلق العمودي ويباشر التسلق بشكل مائل .

عاش العنكبوت ، عاش عاش . . إنك أهل للحياة أيها العنكبوت . . ! . . هيا تسلق هذا الجدار ، تجاوزه و ... وبعد ذلك سأقتلك ...

يقع العنكبوت ... ياللأسف ، ولاسيما في هذه المرة ... كان على وشك الانتهاء من عملية التسلق ، فلو خطا خطوتين لانتهى الجدار .

يرتاح ثم يجمع قواه ، يعاود الهجوم على الجدار مرة أخرى ... يتسلق ... يتسلق... هيا أيها العنكبوت العزيز . . هيا ... يتوقف وهو على الجدار ... يأخذ قسطاً من الراحة ثم يتابع التسلق ... هيا . . لم يبق إلا القليل ... هيا ...

يصل العنكبوت إلى نهاية الجدار ليقف على حافة الحوض المنبسطة ، وبعد توقف قصير هناك ، يجري بسرعة إلى جهة ما ...

سأسحقه ... إنني أقرف منه ، أشمئز منه . . ولذلك سأقتله ... لا ... لا ... لاأستطيع أن أقتله . إني أشعر بقدر كبير من الإحترام إزاء العنكبوت الذي حرر نفسه من زنزانة التعذيب ... فلتعش أيها العنكبوت ... ياسيزيف ... ياذا القوائم الثمانية ... إنك جدير بالحياة .

أخرج من الحمام ، لقد طلع النهار ، وحل الصباح ... أصبحت الساعة السادسة ...

طوال ساعتين ونصف وأنا أراقب النضال الذي خاضه العنكبوت ضدالجدار ، ومن ثم شاهدت كيف انتصر في النهاية .

صباح الخير أيها اليوم الوليد ... إنني أفكر بشعبي ، بهؤلاء الناس الذين يتسلقون الجدار ...

طار النعاس من عيني تماماً... أجلس خلف الطاولة وأكتب ملحمة سيزيف ذي القوائم الثمانية انجزتُ الكتابة، ولكن الساعة أصبحت تمام الثالثة عشر.

من المستحيل أن أجد أي شخص في مكاتب المجلة في مثل هذه الساعة من يوم السبت... مالعمل؟! ...

علينا نحن الأسرة، أن نمضي يوم الأحد دون نقود.

* * *

ولادة عمل خالد

(حوار بين شاعر وزوجته)

- أنت رجل أحمق يظن بأنه عبقري، أفهمت؟

- فهمت ياسكرتي، ولكن لماذا تقولين هذا في وجهي؟ أليس من حقي أن أفخر بنفسي متوهماً بأني عبقري؟

- أنا لم أعد أحتمل.

- لاتبكي ياسكرتي، إنك تقطّعين قلبي... أنا أؤمن فعلاً بأني عبقري، ولكني لاأعلن هذا أمام أحد.

- وهل تريد أن تبعث اعلاناً للصحف تقول فيه«أنا عبقري»، إنك تظهر عبقريتك في كل تصرف من تصرفاتك، إنها واضحة وأنت تنفث دخان سيجارتك، ... كما أنك ترى بأن كل الناس أقل قدراً منك، وتنظر إليهم نظرة فوقية، تسعل بعبقرية وتمشي بعبقرية وتعطس بعبقرية أيضاً.

- وهل يسيء لأحد كوني عبقرياً؟

- نعم، إنه يسيء لي ولبيتنا ولأطفالي، إذ أن الدولة لاتخصص راتباً شهرياً للذي يظن بأنه عبقري، كما أن بقال الحي لايعطيني المأكولات مجاناً عندما يعرف بأنني زوجة العبقري، لقد هجم الشتاء، وحتى الان لم نشترِ الحطب والفحم... كما أن حذائي اهترأ وبدأ الماء ينفذ منه.

- أرجوك ألاتبكي ياسكرتي... أنا أيضاً لاأجلس دونما عمل، إنني أعمل دون توقف، هاقد صدر لي حتى الأن أربعة دواوين شعر .

- هه ... وماذا يفيدنا حتى لوصدر لك أربعة وأربعون كتاباً؟

- وهل تظنين أني لاأتألم لما يحصل ؟ ... ألاأتمنى أن أكتب عملي الخالد لأحصل على الشهرة ولتباع عشرات الآلاف من نسخ كتبي وتترجم إلى كل اللغات. وأصبح غنياً، ... الثروة والشهرة ... لاشك سيأتي ذاك اليوم ...

العبقرية وحدها لاتكفي، إن الأعمال العظيمة لاتخلقها إلاّ الأحداث العظيمة. وماذا تفعل العبقرية في غياب الأحداث الكبرى؟ إنني أنتظر ذلك الحدث العظيم الذي سيؤثر بي ويقلب روحي رأساً على عقب ويكون مصدر إلهام لي، يلزمنى أحداث عظيمة، فلاتطلبي مني أن أسبح في الماء المتجمع في طاسة الغسيل، لاأستطيع أن أضرب باعاً في الأحواض الزجاجية المغلقة ... يجب أن تفتح أمامي المحيطات ... إنني أنتظر تلك الحادثة الكبرى ... ولكن ... أرجوك يكفي بكاء ياسكرتي ... أتوسل إليكِ ألاتبكي، . . كزي على أسنانكِ ... إصبري قليلاً، إني أنتظر ذاك الحدث العظيم الذي سيولد الأعاصير في روحي، اصبري قليلاً بعد، ياسكرتي.

(حوار بين الجلاد وزوجته)

- لقد سئمت حياتي ... سأهرب ... لم أعد أستطيع تحمل هذه المعاناة ...

- ولكن ياسكرتي ... أهو ذنبي إن ساءت الأمور في هذه الأيام الأخيرة؟ ماذا بإمكاني أن أفعل؟ طبعاً، لاأستطيع أن أمسك الناس بالقوة وأعدمهم. لقد أصبح القضاة بخلاء جداً ... ولكني أمل أن أكلف بأعمال جديدة، لاشك ستفرج يوماً ما.

- ألن أشهد مجيء ذاك اليوم؟ العام الماضي لم يكن بهذا السوء، على الأقل كنا نستطيع أن نملأ بطون أطفالنا. ولكن ذكرى العام الماضي لاتملأ بطونهم ...

- لاتبكي أرجوك ياسكرتي، إنك تقطعين فؤادي ... لوكان الأمر بيدي لما توقفت ليل نهار عن إعدام الناس، المهم أن أعمل، إني مستعد أن لاأنام حتى في الليل إذا كان هناك أي عمل، هل أنا إنسان كسول؟!

- افعل شيئاً، اعمل ...

- أتظنين أنني لاأحب أن أعمل؟ ولكني لاأستطيع أن أعدم أحداً مالم تصدر المحكمة قراراً بإعدامه ... ثم انني أتقاضى راتبي على الرأس لاراتباً شهرياً كي يصرفوه لي حتى لو لم أسحب أحداً إلى حبل المشنقة.

- وهل انقطع أثر الناس الذين يستحقون الإعدام في هذه البلاد الواسعة؟

- أنت على حق، ولكني لاأستطيع أن أشرح هذا الكلام للشرطة والقضاة. ولاأستطيع أن أمسك الناس الذين في الشارع وأقوم بإعدامهم، وإن فعلت ذلك فإنهم سيعزلوني من عملي ويعينون غيري في مكاني، كي أقوم بواجبي لابد لأحد القضاة من استعجال أمر إعدام أحد اللذين سيموتون تلقائياً، لابد من حصول ذلك في يوم ما.

أرجوك لاتبكي ياسكرتي ... أتظنين أني متقاعس عن العمل، هل تشكين برغبتي بإعدام الناس كل يوم من أجل أن يعيش أولادي بسعادة وهناء، اصبري قليلاً بعد ... كزي على أسنانك ... لاشك بأن أبواب الحظ ستُفتح لنا في هذه الأيام ...

(حوار بين حفار القبور وزوجته)

- سأخذ أولادي وأترك هذا البيت، هل تسمع؟

- ولماذا تتصرفين هكذا ياسكرتي؟ ... ماذا بإستطاعتي أن أفعل إن كان الناس لايموتون في هذه الأيام؟. إني حفار قبور مسكين ... تتحدثين وكأن الناس يموتون جماعات جماعات، أوأن الموتى مكومون في الشوارع ويطلبون مني دفنهم غير أني أتدلل عليهم ولاأريد أن أدفنهم ... أنت تعرفين أنه ليس بإستطاعتي أن أقبض على الناس الذين في الشوارع وأقبرهم وهم أحياء ...

- لايوجد في البيت لقمة خبز واحدة ...

- لاتبكي ياسكرتي، ستُبكينني أنا أيضاً، وأنت تعرفين بأن دموعي جاهزة

لأن تنهمر ... أنا لاأفهم مالذي حدث للناس، لاأحد يريد أن يموت في هذه الأيام، ألم يبق في العالم الأخر شواغر؟ أم ماذا؟

لاتبكي ياسكرتي أرجوك ... تعلمين بأني أتقاضى راتبي على الرأس لاعلى المجموع كي أتقاضى راتباً شهرياً ... تطلبين مني أن أعمل بإستمرار، ... أنا لست حفار قبور هاوٍ كي أحفر القبور دونما حاجة إليها ... لابد للقبر الذي سأحفره أن يكون صالحاً لعملٍ ما كي أتقاضى نقوداً مقابل ذلك ... اصبري قليلاً بعد ... لابد للحظ من أن يفتح أبوابه لنا ذات يوم ... لاتقطعي الأمل ياسكرتي ... كزي على أسنانك.

(حوار بين الصحفي وزوجته)

- لقد انهارت كل أحلام شبابي، يالتلك الأحلام الجميلة التي تزوجتك من أجلها.

- ولكن ياسكرتي ... دعينا نتحدث دون بكاء.

- لم يبق شيء يمكننا أن نتحدث به.

- حسناً، حسناً، أنت محقة ... ولكن لاتبكي ... إني أعمل من أجل سعادتك.

- تعمل؟ وماذا تعمل إن كنا لانزال حفاة عراة؟

- إن نجاحي وتقدمي في مهنتي هذه، وخلاصي من منصب سكرتير التحرير لأصبح رئيساً للتحرير، ووصولي إلى قيادة العمل في الصحيفة ... كل هذه الأمور مرهونة بوقوع عدد من الأحداث الهائلة والاستثنائية كي أثبت جدارتي فيها وبالإضافة إلى هذا، علي تجاوز بقية الصحف، يجب أن ألفت الإنتباه.

لاأعلم ... مثلاً، يجب وقوع كوارث مثل، حادث طائرة كبير، زلزال رهيب، أوسلسلة من الجرائم الغامضة، أوأي شيء من هذا القبيل ... نعم وقتئذ سترين مالذي سأفعله، لن أكون رجلاً إن لم أتخطَّ كل الصحف الأخرى وأقدمَ

أخباراً أفضل من الأخبار التي يمكن أن يقدمونها . ليس بإستطاعة أحد أن ينظم الصفحة مثلما أفعل ... أوأن يكتب مانشيتات مثيرة ... آه ... مابا ليد حيلة . . إن الفرص المواتية لاتأتيني أبداً، إن الأحداث راكدة تماماً ... كما أنه لايمكن أن أقتل رجلاً ما من أجل إثارة قضية كي أكتب عنها ... ولكني سأقتنص فرصة ما، إذ أن الفرص ستأتي في يوم ما ... أمن المعقول أن لاأكون تواقاً لإبراز جدارتي والعلوُّ في مرتبتي، أوأن أكون الأول في مسابقة الصحفيين السنوية؟ وأن أكسب المزيد من المال كي تتمكن أسرتي من العيش بشكل أفضل، فقد تقع جريمة ما ويكون فاعلها مجهولاً هذه الأيام، وقتئذً انظري إلى المانشيتات التي سأتحف القراء بها، سأجعل قلوب القراء تقفز إلى أفواههم ... لاتبكي أرجوك ياسكرتي ... إن قلبي يتقطع إن بكيتِ ، إدعي كي تتوفر لزوجك فرصة مناسبة ، كأن تغرق سفينة أويحدث طوفانَ ... لاتبكي ... إني لاأحتمل ياسكرتي ، انظري كيف اغرورقت عيناي، أنا أيضاً ، بالدموع ...

(حوار بين الشرطي وزوجته)

- ياإلهي، ماهذا الذي أعاني منه ... هل أستحق أن أعيش هذه الحياة البائسة يالسوء حظي ...

- سكرتي ... واحدتي ... حبيبتي ... لما تتصرفين هكذا؟ افهميني قليلاً ... لاشك بأني أيضاً ، أحب أن أترقى وأصبح ذا مركز مرموق وأن أتمكن من إسعاد أسرتي وأجعلها تعيش برفاهية .

آه ... يالسوء حظي ...

- في الأساس، أنا رجل سيءالحظ لأنني ولدت في هذا البلد العاقر، فلو أني ولدت في بلاد تمتلأ شوارعها بالجرائم الغامضة التي لايُعرف مرتكبوها، لكنت رأيت ماالذي كنت سأفعله، هل كنتُ سأقبل أن أبقى مجرد مفوض عادي أقسم لو كانت الأمور مثلما أريد لما قبلت بأقل من منصب مدير الأمن العام ولكن ماذا

س أفعل إن كنت ولدت في بلد لاتعرف قدر الرجال، إن المرء لايستطيع أن يرتقي سلم الرتب بواسطة الوقائع البوليسية الصغيرة التافهة، وبالتالي لايمكن للإنسان أن يثبت جدارته ويظهر قدراته... لابد من وقوع جنايات وسرقات كبيرة في المحيط الذي يقع ضمن مسؤولياتي، ويعجز الجميع عن حل ألغازها، فأظهر أنا ساعتئذٍ وأحلّ هذه الألغاز، وأحصل نتيجة لذلك على كتب الثناء والترقيات...

لاتبكي ياسكرتي، أرجوك... تعرفين إنني لاأحتمل رؤية دموع عينيك... اصبري قليلاً ياسكرتي... إنني أنتظر وقوع تلك الجرائم الكبرى بين يديّ...

(حوار بين الصيدلي وزوجته)

– لم يبق لديّ جاكيتاً أضعه على ظهري... لم أعد أستطيع الذهاب إلى أحد... لم يبق لدي مايستر جسدي من الثياب... إلى متى سأبقى أعاني من هذا الوضع البائس؟!.

– سكرتي... لاتبكي ياحياتي... اسمعي... من المستحيل أن يحقق الصيدلي أرباحاً من بيع حبوب الأسبرين والكينا... يجب أن نبيع أدوية مستوردة... بأسعار مرتفعة، لاسيما تلك التي يصعب العثور عليها، وقتئذٍ سترين مدى الأرباح التي يمكن أن نحققها... في الحقيقة، كل الناس مرضى، ولكن أين هو الطبيب الجيد الذي ينبغي أن يكون موجوداً كي يفهمهم أنهم مرضى ويكتب لهم الوصفات التي تحتوي على تلك الأدوية الغالية ثم يوجههم إلينا؟... إذا لم يمرض الشعب، وإذا لم يذهب الى الطبيب وإذا لم يبعثهم الطبيب إليّ فماذا ستكون عاقبة ذلك ياسكرتي؟ إن هذه البلاد تسير نحو الهاوية... نعم إلى الهاوية... لاتبكي ياسكرتي... إن قلبي رقيق جداً، تهتز مشاعري من الأعماق عندما تبكين بهذا الشكل، لاشك سيأتي اليوم الذي ستسير فيه أعمالنا بالشكل المطلوب... إنه أتٍ، ولاريب، ذلك اليوم الذي سنشهد فيه جموع المرضى الغفيرة وقد اصطفت بالدور أمام الصيدلية وبيد كل منهم وصفته، اصبري قليلاً ياسكرتي... ستفرج ذات يوم ياروحي.

(حوار بين الطبيب وزوجته)

- بالإسم فقط أنا زوجة الطبيب، أصبحت زوجة طبيب ولكن مالذي جنيته من ذلك ... واأسفاه على شبابي ... وأسفاه على جمالي ...

- ولكن ياسكرتي ...

- كفى لقد مللت ...

- أرجوك لاتبكي ... إنك تحزنيني ... منذ خمسة عشر يوماً لم يأتِ إلى عيادتي أي زبون، عفواً، أقصد، أي مريض، أرجوك، فكري بذلك. يأتيني بإستمرار اناس مفلسون، وبحاجة للمساعدة، فضلاً عن الأخرين الذين يترددون إلى العيادة قادمين من الجمعيات الخيرية، وبأيديهم دفاتر الإيصالات. لاأفهم مالذي حدث لهؤلاء الناس؟ في الحقيقة، جميعهم مرضى ... ولكنهم يجهلون ذلك ... ماذا بإستطاعتي أن أفعل؟ لوجاءني مرضى، لكنت على استعداد لأن أقوم بمعاينة مئة مريض في اليوم الواحد ... ولكن السفلة لايأتون ... لست قاضياً حتى أجلب الناس عن طريق الشرطة ... لاأحتمل رؤية دموعك المنهمرة ياحبيبتي، أرجوك ألاتبكي ... لاأحد يأتي إلى العيادة، ولو لم أدخل وأخرج من باب العيادة لصدأت مفصلات الباب ...

ليت مريضاً غنياً يقع في يديَّ، إن أفضل المرضى هو المريض الذي لايشفى ولايموت، على المريض النموذجي ألايتماثل للشفاء وألايموت ...

أفكر بأن أبعث بطاقة شكر مزورة أوجهها إلى نفسي عبر الصحف، ولكن مريضاً واحداً لم يطرق باب العيادة، ولو بالخطأ، منذ مدة طويلة.

ولكن. . اصبري، كزي على أسنانكِ أكثر ... مابعد الصبر إلاَّ الفرج ... مهما حصل فلاشك بأن الحظ السعيدَ سيطرق بابنا يوماً، فأنا لاأريد مريضاً عادياً بخس الثمن، مريض واحد يكفي شريطة أن يكون دسماً.

(حوار بين المحامي وزوجته)

- إني ذاهبة إلى بيت أبي ، هذا كل ماعندي .

- تمهلي ياروحي ، هدئي أعصابك ياسكرتي ...

- ألايكفي ماعانيته حتى الأن؟ مالذي قدمته لي حتى اليوم بصفتك زوجي؟ أنت محامٍ بالإسم فقط ... ألايدعو وضعي للرثاء؟ ... مالذي ينقصني عن الأخريات؟

- ياسكرتي ... لاتبكي ، إنك تنسين حبنا الكبير بهذه السرعة .

- الحب الجاف ، لايُشبع البطن ...

- لحظة ياسكرتي ، إن الأعمال سيئة للغاية ... فمنذ عدة أيام لم يطرق باب مكتبي أي زبون ، عفواً ، أقصد ، لم يأت أي مدَّعٍ أومدَّعى عليه ... ماالذي جرى لهؤلاء الناس ، إني لاأفهمهم قط ... هل تواقفوا عن خوزقة بعضهم البعض؟ ألايقتلون بعضهم بعضاً؟ ماهذا؟ ... إني محامي القضايا الكبيرة ... بدلاً من أن توكل إليَّ دعوى طلاق واحدة ، لماذا لاتأتيني دعوى اقتتال حول قطعة أرض يجب أن توكل إليَّ الدعاوي التي تنطوي على الملايين كي تكون حصتي منها معقولة ، ولتكتب الصحف عني وتزداد شهرتي ... حينذاك سترين كيف سأوفر لك حياة هانئة ، مثل الأميرات ... مثل الملكات ...

- وهل يزيدنني الملكات بشيء؟ هل جباههن مصقولة بالذهب؟

- أنا لم أقل شيئاً كهذا ياسكرتي ... أنا سأوفر لك حياة تليق بك ... ولكن لم يقع في يدي حتى الأن زبون كهذا الذي ذكرته ... وبماذا يزيدني المحامون الذين يربحون الملايين؟ هاقد نصبت شباكي وأنتظر ... قطعاً سيقع في يدي ذات يوم ... اصبري قليلاً بعد ياسكرتي ... لاتبكي . . أرجوكِ ، إنك تعتصرين قلبي . . لاتهدري دموعك التي تشبه اللألىء .

(انطباعات عن سعادة العش الزوجي)

وصل أخيراً، الخلاف بين أحد الإقطاعيين وأهالي إحدى القرى إلى المحكمة يّدعي الإقطاعي بأن أراضي القرية ملك له وذلك استناداً إلى سند الطابو الذي ورثه عن أبيه، ويطالب بترحيل الفلاحين من هذه الأراضي التي طالما استخدموها دون أن يدفعوا إيجارها، إن هذا الإقطاعي الذي يعتبر من كبار تجار الاستيراد وصاحب معمل للنسيج، كان في الحقيقة، يهدف إلى تحويل أراضي القرية الخصبة والمروية بعد طرد الفلاحين منها إلى مزرعة حديثة تنتج كثيراً من المحاصيل وتفيد اقتصاد البلد فائدة كبرى، ولكن الفلاحين ذوي الرؤوس الجامدة كانوا عاجزين عن فهم امكانية أن تكون هذه الحقول التي يحرثونها ويزرعونها ويحصدون محاصيلها أباً عن جد ملكاً لهذا الرجل الذي وقف أمامهم حاملاً قطعة من الورق.

اهتدى الإقطاعي، بواسطة أحد معارفه، إلى مكتب محامٍ طال انتظاره لأي صاحب قضية، ووكله بدعواه...

تابع المحامي الشاب القضية بكثير من الحماس، كانت القرية، أساساً، للإقطاعي بناءً على سندات الطابو التي بحوزته، ولكن القرويين الذين لايعرفون سند الطابو، كانوا يقاومون وهم معتقدون بأنهم على حق، وهذا ماأطال أمد الدعوى من جلسة لأخرى.

مع زيادة طول أمد الدعوى، اهترأت أعصاب الإقطاعي الذي كان يشكو من عدم سير الأمور في هذا البلد بالسرعة المطلوبة، مما يؤدي إلى تخلفه، واهتراء أعصابه أدى إلى تفاقم القرحة، وتفاقم القرحة أدى إلى زيادة نسبة السكر بدمه، وازدياد نسبة السكر في الدم أدى إلى ارتفاع الضغط ثم وقع بين يدي طبيب كان يجلس في عيادته منتظراً مريضاً ما.

كان هذا الطبيب يبذلَ أقصى الجهود من أجل منع مريضه من الموت بالدرجة التي يعمل بها من أجل منعه من التماثل للشفاء، ودأب على كتابة الأدوية المستوردة ذات الأسعار الباهظة في وصفاته. وأما الصيدلي الذي ملَّ من بيع فراشي الأسنان

والمعجون وحبوب الأسبرين والكينا، راح يبيع تلك الأدوية المستوردة ذات الأسعار المرتفعة المكتوبة في الوصفات مما مكنه من تأمين السعادة لعشه الزوجي.

ازداد عدد المرضى الذين بدأوا بالمجيء إلى عيادة الطبيب الذي عالج أحد رموز الخير والشهرة في البلد، مما جعله طبيباً مشهوراً.

وعلى الرغم من أن جلسات المحكمة طالت كثيراً إلا أن المحامي الشاب ربح في النهاية، ولكنه لم يربح الدعوى وحسب بل وأتعابه أيضاً البالغة إثنين في المائة من قيمة موضوع الدعوى، وبعد أن أصبح غنياً ومشهوراً استطاع أن يوفر أسباب السعادة لعشه الزوجي.

وفي هذه الأثناء ظن أحد القرويين، الذين خسروا الدعوى وطُردوا من قريتهم التي ولدوا وترعرعوا فيها، بأنه مظلوم وذلك بسبب جهله وعقله القروي، فانقضّ على الرجل الغني الذي سلبه أرضه، بالسكين ليطعنه في ظهره أربع طعنات أودت بحياته.

ونظراً لأن الفلاح كان، خلافاً لما يؤمل منه ومن دماغه السميك، قد نفذ جريمته بسرية تامة وفق خطة محكمة، فقد بقيت الجريمة غامضة لم يعرف فاعلها، وأما مفوض الشرطة الذي بقي يراوح في مكانه سنوات طويلة دون ترقية، فقد تولى مهمة ملاحقة هذه الجريمة، وظل يعمل ليل نهار بحماس منقطع النظير إلى أن ألقى القبض على القروي القاتل، مما أهله لأن يحصل على كتب الثناء والمكافآت. وفُتح بذلك باب الترقيات أمامه، وبهذا استطاع أن يؤمن السعادة لعشه الزوجي.

وأما سكرتير تحرير الصحيفة التي سبقت سائر الصحف في نشر خبر العثور على مرتكب تلك الجريمة اللغز، فقد أجرى مقابلة مثيرة مع القاتل مكّنته من أن يصل إلى المرتب الأولى في المسابقة الصحفية السنوية. وبعد تحقيق هذه النجاحات ارتقى إلى منصب مدير التحرير، ونتيجة لكل هذا استطاع الرجل أن يوفر السعادة لعشه الزوجي على اسس متينة.

وأما الجلاد الذي كان ينتظر عملاً منذ أيام طويلة، فقد كانت السعادة تغمره وهو ينظر إلى العمل الذي كلف به، قام بلف أنشوطة الحبل المشبع بالزيت بحماس

شديد، حول رقبة الجاني المحكوم بالإعدام، وأخذ أجره فأمن بذلك سعادة عشه الزوجي.

كان حفار القبور أيضاً مسروراً للغاية، فقد حفر قبرين خلال فترة وجيزة، معنى هذا أن أموره بدأت تسير على مايرام بعد أن تركه سوء الحظ، وتمكن أيضاً من توفير السعادة لعشه الزوجي.

أصبح موضوع تلطخ يد أحد الفلاحين بالدماء نتيجة للصراع الدائر بين القرويين والإقطاعي موضوعاً للكتابة والرسم والكاريكاتور والمناقشة في سائر الصحف والمجلات أياماً عديدة. وأما الشاعر الذي طال انتظاره لحدث يهزه من الأعماق ويقلب روحه رأساً على عقب، لكي يكتب مأثرته الشعرية الخالدة. انفعل دون أن يدري أيّما انفعال ووقع تحت تأثير هذه المسألة الدرامية فكتب ملحمة كبرى حول نضال الإنسان في سبيل الأرض مستلهماً هذه الملحمة من هذه الدراما العظيمة. كانت هذه الملحمة عملاً عظيماً خلّدت الشاعر، وبيعت نسخ هذه الملحمة التي طبعت بعد ذلك بعشرات الآلاف كما ترجمت إلى العديد من اللغات، وبذلك استطاع الشاعر الذي حصل على الثروة والشهرة أن يوفر السعادة لعشه الزوجي.

نالت الملحمة الناجحة التي كُتبتْ حول الصراع من أجل الأرض أكبر الجوائز الأدبية في ذلك العام، وقد أُقيمت حفلة كبرى تكريماً لشاعر الملحمة التي ترجمت إلى العديد من اللغات. دعي إلى هذه الحفلة جميع مشاهير البلاد المعروفين وكان من بين المدعّوين الأشخاص الذين تحدثنا عنهم وهم الطبيب والصيدلي والمحامي والصحفي والمفوض/ الذي أصبح كبير المفوضين، ويتولى مهام معاون معاون مدير الأمن العام/ وقد كانت زوجاتهم اللواتي تألقت عيونهن من فرط الرفاهية والرخاء يشعرن بالكثير من الفخر والإعتزاز بأزواجهن. و بصورة خاصة كانت زوجة الشاعر الملحمي تهمس بإذن زوجها وهي تحمل كأس الويسكي بيدها:

أنت عبقري ياحبيبي...

ويقول لها :

- إنك تخجلينني ياسكرتي ...

ارتفعت الأقداح وشربت الأنخاب على شرف النجاح العظيم الذي حققه .

وراح الجميع يهنئون الشاعر ، وبينما كان الشاعر يقرأ مقطوعة من الملحمة في جو عاصف من التصفيق، اغرورقت عيناه وعيون الحضور بالدموع :

ياأيها المناضلون من أجل شبر من التراب .

ولاتـطلبـون النياشـــين

والأوســـمة ...

لأنكم أنتم، أصحاب الشرف والكبرياء

قلبي يذوب من أجلكم ...

آه ... أيها المساكين ... البائسون ...

البـائســـــون ...

أؤمن بأنه سيأتي يومٌ

تنعقد فيه أخوة متينة

بـــين الأرانب والمصـائد ...

من بين الذين كانوا من أكثر الحضور بكاء تحت تأثير الملحمة، كان كل من المحامي والطبيب والصيدلي والصحفي وكبير المفوضين أيضاً .

رفعوا الكؤوس بعيون ملأى بالدموع، ليشربوا الأنخاب مقدمين تهانيهم القلبية للشاعر الذي صور واقع البلاد أفضل تصوير بهذه الملحمة الخالدة .

ذكرى رأس السنة

إذاً هذا هو رأس السنة التاسعة والأربعين بالنسبة لي، ومن بين كل هذه السنين لم تؤثر بي سوى اثنتين أوثلاثة من ذكريات ليالي رأس السنة، ... هناك رأس سنة لاأستطيع نسيانه قط، ففي العام ٤٧ أو٤٨ كنا سبعة أشخاص في مهجع السياسيين بسجن «باشكابي سي» في منطقة «أوسكودار» كنت أنتظر الفتاة ذات الشعر الاقحواني ولكنها لم تأت أبداً، وقد نقل لي أخبارها أحد الزوار، وقال بأنها كانت بين ذراعي أحد أعز أصدقائي الشعراء. وقد كنا نعيش آخر يوم في السنة في السجن، يستشعر الإنسان، فكتبت قصيدة «إخلاء سبيلي» في آخر يوم من ذاك العام.

إذا كُتب لي أن أخرج من هذا السجن ...

فإن البحار والمحيطات ...

ستبدو طرقاً أمام ناظري

غرفتي ضيقةٌ جداً، ولكن إن وصلت

فإن القبر

سيبدو رحباً أمام ناظري ...

* * *

أمضيت السنين ...

أبحث عن الحبيب

وكم راقبت طريق الحبيب الخائن

ولم أشتق إلاّ لذاك اللون الأخضر

لأمسح وجهي بالأوراق الخضراء .

* * *

الشخص السجين يقرأ فاله بنفسه

يصبح غريباً وأحواله يائسة

لوخرجت يوماً من هنا

لَبدَتْ كل الأغصان اليابسة

أذرعاً تمتد لعناقي ...

* * *

الإنسان الحر ، يمر من البحر دون أن يعرف قيمته ...

اسألنا نحن ... ماهو البحر ... ماهو الأزرق ...

لوخرجت يوماً من هذا السجن اللعين ...

سأصبح ماءً ... كي تصدق كلامي ...

* * *

بينما كنا نتعاون على تحضير المائدة ، قال أحد الأصدقاء :

- يقول موسوليني بأن هناك ستة شروط إذا توفرت في الإنسان فإنه يكون رجلاً تاماً ، التعليم العالي ، الوقوع في الحب ، الأبوة ، الخدمة العسكرية ، التسكع في حالة الفقر والبطالة ، والسجن ...

حسب هذه الشروط كانت رجولتنا، نحن السبعة، كاملة تماماً.

بدا وكأن البقاء في حالة البؤس والكآبة داخل السجن ليلة رأس السنة قد حظر تلقائياً، فغرقنا في جو من المرح والضحك.

فتحت إحدى علب دخان «كلوب» الثمانية التي أحضرها لي زائري، فأخرجت منه سيجارة من نوع «بيرينجي» ياإلهي انظروا إلى هذا الحظ الرائع، جميع العلب التي احتوت على سجائر «بيرنجي» كانت من نصيبي، لقد وضعت السجائر فيها بالخطأ.

كانت العلب الثمانية من هذا النوع.

- لالم تأتِ بالخطأ، بل إنها حيلة واضحة تماماً.

سالت الدموع من عيون أصدقائي من شدة الضحك من حماقتي، فلقد فتحوا علب دخان «كلوب» ووضعوا بداخلها سجائر من نوع «بيرينجي» ثم أعادوا اغلاقها بطريقة ماهرة لايمكن للمرء أن يكتشف بأنها مفتوحة، وعندما اكتشفت اللعبة قلت لهم:

- أتظنون أني لم أكتشف حيلتكم، لقد فهمتها منذ البداية ولكني لم أظهر معرفتي تلك كي تضحكوا قليلاً.

ثم ضحكنا، وضحكنا ... وبعد منتصف الليل، اقترح أحد الأصدقاء قائلاً:

- لنجتمع سوية ليلة رأس السنة القادمة في «نيساووظ»، لنمضي ليلة رأس السنة معاً، وأما اللذين يقطنون في مكان بعيد عن استانبول ولايستطيعون الحضور فليبعثوا برقية.

وافقنا على اقتراحه، إذ أننا سنكون، نحن السبعة، خارج السجن في السنة القادمة.

بعد هذه الليلة بشهرين أوثلاثة أشهر تم إخلاء سبيلي، ولم أستطع تسوية

أوضاعي بأي شكل من الأشكال، البيت من جهة والعائلة والأولاد متفرقون في جهة أخرى، وأنا وحدي دون عمل ، ولاحول لي ولاقوة.

في اليوم الأخير من العام سيطرت علي فكرة مفادها: أنني سألتقي مساءً مع الأصدقاء في «نيساووظ». ولكن لايوجد معي نقود، ونظراً لأن كمّي الجاكيت الكتانية البيضاء التي اشتريتها بثمن بخس في الصيف، قد اهترأت عند المرفقين فإنني قررت أن أرتدي المعطف القديم الذي قدمه لي علاء الدين، ومقدمتا حذائي مفتوحتان كفمي كلبين يريدان العواء، كان لي صديق يقطن في «سعادية» وكان مديناً لي بمبلغ صغير من المال، ذهبت إلى هناك لأطالبه بالدين الذي عليه، فوجدت صديقي وزوجته يستعدان لإقامة حفلة ليلة رأس السنة في بيتهم وأصرا عليّ أن أبقى معهما لقضاء السهرة سوية.

– نرجوك أن تخلع معطفك وتجلس .

إذا خلعت معطفي فإنهم سيرون جاكيتي الذي البسته في الأيام الباردة، كما أنهم سيرون كميه المهترئين، فضلاً على ذلك لاأستطيع البقاء معهما طويلاً، لأنني سأذهب إلى نيساووظ. ولما رأيت معاملتهم اللطيفة معي، خجلت من طلب النقود، خاصة أنه مبلغ قليل لايستاهل.

عندما خرجت من الـ «سعادية» ومشيت على الجسر كان في جيبي مامجموعه ليرة واحدة من القطع النقدية المعدنية، شعرت بجوع شديد إذ أنني لم أتناول الطعام منذ الصباح الباكر، ذهبت إلى صديق لي يسكن في «آك سراي» كي استلف منه بعض النقود، ولكنني لم أجده في بيته، ذهبت إلى بيت صديق آخر في «شيشلي» لقد أظهر أهل بيته الكثير من المودة وألحوا عليّ بأن: « ابق بيننا في ليلة رأس السنة» فلم أستطع أن أقول لهم بأنني أتيت من أجل استلاف بعض النقود، مررت يومها على كل الأصدقاء اللذين خطروا ببالي ، ولكنني لم أجد بعضاً منهم في بيته، والبعض الذي وجدته، كان يلح علي بأن أمضي معهم ليلة رأس السنة، أي أنني لم أستطع أن أطلب نقوداً من أحد.

أيام الشتاء، خيّم الظلام في وقت مبكر، وبدأ يهطل ثلج ممزوج بالماء بغزارة، إنني أشعر ببرد قارس، فقدماي تسبحان في بركتي ماء.

دفعت آخر ماتبقى معي إجرة باص لينقلني إلى «بويوك دره» حيث يقطن أحد الأصدقاء، قررت أن أستلف نقوداً منه، وجدته في بيته، ولكني ندمت ألف مرة لأني دخلت إلى البيت، لأني عندما كنت أدوس على الأرض كان الماء المحصور بين جرابي وقاعدة حذائي تنفر مصدرةً أصواتاً «فش... فش» وأترك حيث أدوس آثاراً واضحة لحذائي المبتل المغطى بالوحل.

- هيا اخلع معطفك.

- لاحاجة لذلك.. إنني ذاهب.

- لا... هذا مستحيل، لن نتخلى عنك مهما فعلت، جيد أنك حضرت، لقد بحثنا عنك في كل مكان، سنمضي ليلة رأس السنة سوية.

في موقف كهذا يتعذر على الإنسان أن يقول «سلفوني عشر ليرات، وإذا استحال ذلك فلتكن خمس ليرات».

خرجت من هناك زاعماً أنني مدعوٌ إلى مكان آخر.

بقيت وحيداً في «بويوك دره» جائعاً ودونما قرش واحد، كما أن هطول الثلج ازداد بشكل كبير، لاأدري أهو من البرد أم من الجوع أم من الوحدة، المهم ماأعرفه هو أن أسناني راحت تصطك بعضها وأنا أرتجف من شدة البرد لابأس، لاشك أن الأصدقاء قد وصلوا إلى نيساووظ منذ فترة طويلة، وعندما لم يجدوني قد وفيت بوعدي بالذهاب إليهم سيقولون «ياله من مخاتل» ولكن لا، أنا لاأسمح للآخرين بأن يصفوني بمثل هذه الصفات. هيا ياولدي امش بما أوتيت من قوة، وإنها لمسافة طويلة جداً فأين بويوك درة من «بي أوغلو»... وفي الطريق، رحت أفكر بيني وبين نفسي بما يلي:

« ليسوا غرباء، فهم أصدقائي... سأشرح لهم وضعي، سأقول بأنني بلا

نقود وبلاعمل، لاشك أنهم مزودون بالنقود، وسأشرح لهم سبب تأخري، سيضحكون كثيراً وأنا أشرح لهم وضعي، وسبب تأخري، حقهم أن يضحكوا فلايمكن للمرء إزاء وضع كوضعي إلاَّ أن يضحك، فلو عصرني أحدهم مثلما يعصر الغسيل لانسكب مني ثلاثة سطول من الماء ولن يترك مني شيئاً يذكر، سأشرح، ونضحك مثلما فعلنا ليلة رأس السنة الفائتة.

حوالي منتصف الليل دلفت إلى داخل «نيساووظ» سأشرح لكم، قبل كل شيء عن مواصفات نيساووظ، لقد أشيد اليوم في هذا المكان مصرفاً، عند مدخل المحل، وخلف الزجاج يجلس جنرالات متقاعدون، إنهم رجال يرتدون ثياباً فات زيُّها منذ زمن، إنهم من بقايا عهد «المشروطيات» يجلسون مثل القوالب المصبوبة، يراقبون، بنظراتهم المتجمدة، الحشود التي تمر في الشارع الذي أمامهم. وبالمقابل فإن الذين يمرون في الشارع يراقبونهم أيضاً. ويبدو جميع هؤلاء وكأن خازوقاً قد دق من مؤخرتهم إلى رأسهم. وحين تتحرك الشفاه المفتوحة، يفهم المرء أنهم يحادثون بعضهم بعضاً.

خلف هذه المعروضات، التي تملأ ثلاثة صفوف من الطاولات، يجلس الفنانون، أشهر رسامي ذاك الزمان، وأشهر كتابه وصحفييه وبرفيسورييه، من النساء والرجال. وهذه المجموعة مستمرة في نقاشاتها بكثير من الصخب والصراخ، وبين الحين والأخر كانوا يتشاجرون فيما بينهم.

أما على الطاولات التي في المؤخرة فكان يجلس القوادون الذين ينتظرون زبائنهم، إذ أنهم يؤجرِّون النساء والفتيات.

وهناك معرفة جيدة بين المثقفين الذين يجلسون في الوسط وبين بنات الهوى اللائي يجلسن خلفهم، وكثيراً ماكان محدثوا النعمة الذين يعشقون البغايا يأتون إلى هنا لعقد صفقة مع أحد القوادين، ثم يأخذون الفتاة ويذهبون، أغلب الفتيات كن يعدن إلى مكانهن بعد نصف ساعة.

دخلت إلى نيساووظ والماء يسيل مني، نظرت حولي فلم أجد أيّاً من

الأصدقاء الذين اتفقت معهم للحضور إلى هنا. كان نيكو صاحب نيساووظ «مات منذ زمن» يعرفهم جميعاً، وحين سألته عنهم، قال «لم يأتوا».

ولأن الليلة هي ليلة رأس السنة فقد كان المقهى عند المدخل والوسط فارغاً تماماً، لم يكن هناك إلاّ بنات الهوى بصحبة واحدة أواثنتين من القوادات كنا على معرفة بكل الفتيات اللائي يعملن هنا.

عاملات المقهى كن من روسيا البيضاء، جاءت إحداهن إلى طاولتي وقالت:

- تفدلوا...

لم أكن أملك النقود كي أجرؤ على طلب أي شيء، ومع ذلك غامرت قائلاً:

- شاي مدام.

قلت في سري« مازال الوقت مبكراً، لاشك سيأتي الأصدقاء ويدفعون ثمن الشاي».

كان هناك فتاة نسيت اسمها الأن، طويلة القد ونحيلة، عظام وجهها بارزة، كانت فتاة عاقلة ومتزنة وكم كان البروفيسور مصطفى شكيب تونج مولعاً بالحديث معها، كان يقول دائماً:

- لو كنت شاباً لتزوجت هذه الفتاة...

الفتاة نفسها، ابتسمت لي وقالت:

- ماهذا؟ تبدو وحيداً في ليلة رأس السنة، لاأرى أحداً من أصدقائك هنا.

فقلت:

- إني أنتظرهم، سألتقي مع الأصدقاء هنا ومن ثم سنذهب إلى مكان آخر.

فقالت:

- وأما نحن، فما بيدنا حيلة، إذ ليس لنا مكاناً آخر كي نذهب إليه غير هذا المكان.

وبعد قليل دخل اثنان من عشاق بنات الهوى فساومت بنفسها مع أحدهما وخرجت معه، وبعد نصف ساعة عادت لتقول:

- ألم يصل أصدقاؤك بعد؟

- سيأتون، مازال الوقت مبكراً.

تجاوزت الساعة الواحدة (كانت نيساووظ، في تلك الأيام، تفتح حتى الصباح)

أكاد أموت من الجوع...

كان هناك امرأة تتاجر بالنساء، ترتدي ثياباً تدل على أنها سيدة محترمة، يُقال بأنها كانت تدرِّس أحد أولادها في كلية الطب البشري والأخر كانت ترسله إلى المدرسة الثانوية، بواسطة هذه المرأة، خرجت الفتاة مع زبون آخر وعادت من جديد في الساعة الثانية.

- ألم يأتوا حتى الأن.

- سيأتون، لقد اتفقنا على أن نلتقي في ساعة متأخرة.

كان معطفي المبلل الذي لم أخلعه يجف شيئاً فشيئاً، ولكن الجاكيت والبنطال والقميص بقوا مبللين.

أصبحت الساعة الخامسة والنصف، إلى ذلك الوقت كانت الفتاة قد عثرت على عدد من الزبائن الذين ذهبت معهم وعادت تباعاً.

فقدت الأمل من مجيء أصدقائي، ولكني لاأستطيع الخروج من نيساووظ لأني لم أدفع ثمن كأس الشاي الذي شربته.

اقتربت الفتاة بعد عودتها الأخيرة وقالت:

- أصحابك لن يأتوا على الأغلب.

آلمني هذا الكلام كثيراً، فقلت:

- لاياروحي ... سيأتون.

كان ضوء الصباح المائل إلى الزرقة المنعكس على الشارع يتسلل عبر زجاج النوافذ الواسعة ليصبغ الجدران.

- أتسمح لي أن آتي إلى طاولتك؟

لابد من طلب شيء ما إذا ماجاءت، فقلت:

- ألايوجد عمل بعد؟!

- دعك من هذا ...

في تلك الأثناء سمعتها تقول للرجل الذي جاء برفقة القوادة التي تشبه السيدة المحترمة بثيابها:

- لقد تعبت ...

جاءت إلى طاولتي وقالت بعد أن جلست:

- أكاد أموت من جوعي.

كان المطبخ الكائن خلف المقهى يقدم وجبات سريعة، سألتني:

- هل تأكل أومليت؟

- ميرسي ... أنا شبعان.

- لاشك أمك جعت منذ المساء ... لنأكل سوية ...

بقيت صامتاً.

- وهل حُرِّم عليَّ أن أدعو أحداً أوأن أقدم له شيئاً ما؟

- طبعاً تستطيعين .

أكلنا طبقاً من طعام يدعى بورج ثم أكلنا أومليت وشربنا فنجان كاكاو لكل منا، كنت متأكدامن أنه أجبرت نفسها على تناول الطعام لكي تشجعني على تناول الطعام فقط.

لم يكن من عادة الفتيات تسديد الحساب سلفاً، بل يسجل على حسابها، ولكنها أصرت على الدفع مباشرة، ثم دفعت ثمن كأس الشاي الذي شربته من قبل.

حل الصباح، لم يبق في المقهى سوانا، نحن الإثنين، خرجنا سوية، وتركتها أمام مدخل البيت حيث غرفتها في زقاق «شيشيك جي» في الـ«غَلَطَة سراي».

مرَّت العديد من السنين منذ ذلك الحين، ولم أستطع نسيان ليلة رأس السنة هذه، وكثيراً مارأيت أصدقائي الذين جعلوني أنتظر ولم يأتوا ومازلت ألتقي بهم، لم أقل لأي منهم: «لماذا لم تأتوا تلك الليلة؟».

وهم أيضاً لم يقولوا أي شيء حول هذا الموضوع.

* * *

براتب واحد

إنه اليوم الأول في الشهر، وهاأنذا أقبض أول راتب لي.

قال المحاسب وهو يعطيني النقود:

- ألديك ثلاثين ليرة؟.

كدت أضحك، سيأخذ مني ثلاثين ليرة!! لكي يعطيني ثلاثة قطع نقدية من فئة المئة ليرة. أجبت بينما كنت مكباً على الطاولة وأضع توقيعي على الجدول:

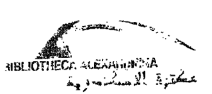
- كلا ياسيدي.

فأعطاني قطعتين من فئة المئة ليرة، وقطعة من فئة خمسين وإثنتين من فئة عشر ليرات.

خرجت من الدائرة في الساعة الخامسة تماماً، عندما كنت في الثانوية كان لي صديق يعمل أجيراً عند أحد أطباء الأسنان، نصحني ذات يوم قائلاً:

- لاتضع نقودك كلها في جيب واحد، بل وزعهم في كل جيوبك، كي لاتُسرق، أوتضيع، وبعد ذلك ستصبح دون نقود.

وضعت القطعتين ذوات المئة ليرة في الجيب الداخلي الأيمن للسترة، وفئة الخمسين في الجيب الأيسر من سترتي، وقطعتين من ذوات العشرة في جيب بنطالي، إضافة إلى كل ذلك كنت أحمل قطعاً صغيرة من النقود المعدنية، وبين الحين والأخر كنت أتأكد من أن النقود مازالت في مكانها.



خطر لي أنها قد تقع لدى إخراج المنديل، قد يحصل ... وزيادة في الحيطة وضعت المنديل في الجيب الذي لم أضع فيه أية نقود.

إلى اليمين كان يوجد مبنى ضخماً كتب على بابه «يوجد شقق للإيجار». دخلت إلى البناية، كان مدخل البناية واسعاً جداً، وكان مرسوماً على الجدار الأيمن صورة لـ «كزكولاسي» (برج الفتاة) وأما على الجدار الأيسر فقد رسمت لوحة، هي عبارة عن صورة لحديقة يُنظر إليها عبر رواق محاط بأعمدة من رخام، قرعت جرس بيت بواب البناية، فُتحت نافذة على ارتفاع لايزيد عن شبرين من الأرض، قلت للبواب، الذي كان ينظر إليّ من الأسفل:

- أريد أن أرى إحدى الشقق المعدة للإيجار.

صعد البواب درجات السلم ثم أتى إلى جانبي وقال:

- تفضل.

فتح باب الطابق الثاني ثلاث غرف مع موزِّع وحمام ومطبخ:

- كم هي الإجرة؟

- خمسمائة ليرة ...

- جميل!! ...

فقال البواب:

- ماذا؟

قلت مرة أخرى:

- جميل ...

خرجت إلى الشارع، تفقدت قطع النقود الورقية، الموجودة في جيوبي، من الخارج، كان الشارع مزدحماً. وعندما وصلت إلى أمام المطعم الذي استعرض واجهته في كل مرة، توقفت. أحب هذا المطعم كثيراً، لأن أصحابه لايملؤون

الواجهة بالمأكولات والحلويات كما يفعل أصحاب المطاعم الأخرى، ليس هناك إلاّ غطاء من المخمل، وفوقه إناء فضي وأشياء أخرى ملونة، كالورود... ولاشيء أخر.

دخلت المطعم، كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها إلى هذا المكان لم يكن الوقت وقت تناول إحدى الوجبات ولهذا كانت الطاولات شاغرة.

بادرني النادل:

- تفضلوا...

فقلت:

- شاتو بريان.

كنت أعلم أن شاتو بريان هو اسم أحد الكتاب الفرنسيين، ولكني فوجئت قبل ثلاثة أيام حين قال لي أحد الأصدقاء بأن هناك نوع من الطعام بالإسم نفسه.

نزل أحد أفراد طبقة النبلاء الانكليز في أحد فنادقنا الممتازة وطلب من رئيس الخدم قائلاً:

- ماهي وجبتكم الخاصة؟

ثم قُدم للإنكليزي هذا الطعام الذي يسمى شاتو بريان، وكان هذا الانكليزي قد تناول الشاتو بريان في أحد مطاعم باريس الفاخرة قبل عشرين عاماً، وكان ذاك الشاتوبريان قد حضّره طاهٍ يدعى جان، وكان من أمهر الطهاة، وعندما تناول الإنكليزي أول لقمة من شاتو بريان استانبول قال:

- مامن أحد في العالم يستطيع أن يطهي مثل هذا الشاتوبريان اللذيذ سوى المسيو جان.

فقالوا له:

- يس سير، إن المسيو جان هو الذي طبخ الشاتو بريان هذا، فهو يعمل عندنا.

وأنا أيضاً قلت للنادل الذي قال لي تفضّلوا: شاتو بريان

- تفضلوا، ...

قلت:

- شاتو بريان .

دُهِش النادل، ركض صاحب المطعم، فسألته هو الأخر:

- هل يستطيع طباخكم أن يطبخ هذا النوع من الطعام؟

- طبعاً يستطيع، سيقوم بإعداده للمساء.

- بكم الوجبة؟

صعقوا جميعهم من سؤالي الأخير، ربما ظنوا بأني مفتش البلدية.

نظرت إلى القائمة المعلقة على الجدار، اللحوم، خمس ليرات. الخضراوات، ثلاث ليرات، الحساء: مائة وخمسون قرشاً.

بينما كان الجميع يتأملونني بدهشة، كنت أحسب وأجمع الأرقام، استنتجت من كل ذلك بأنني أستطيع ملء بطني في هذا المطعم بمبلغ قدره خمس عشرة ليرة ... قال الرجل:

- بسيطة ياسيدي ...

فقلت له:

- جميل ...

خرجت من المطعم، وماأن قطعت خمسين خطوة حتى رأيت راجي الذي قال لي:

- لقد تزوجت . .

- متى؟

- في الأسبوع الماضي أقمت حفلة زفافي، لقد أنفقت الكثير من النقود.

- أنفقت الكثير؟ كم؟

- كانت تكلفة حفلة الزفاف فقط، خمسة آلاف ليرة، من الساعة التاسعة مساءً حتى الصباح.

فقلت:

- جميل...

مشيت دون أن ألتفت أو أنظر إلى راجي، هو الأخر أصيب بالذهول وتسمَّر في مكانه وهو يراقبني من الخلف.

تفقدت النقود الموزعة في جيوبي، مازالت كلها في مكانها، يوجد معي مائتين وسبعين ليرة، عدا الفراطة.

كنت كمن يمشي في نومه، إذ أنني لاأذكر متى وكيف دخلت إلى هذه البناية الضخمة، وجدت نفسي واقفاً أمام باب غرفة موجودة في هذه البناية، وفهمت، من خلال الكتابة السوداء المنقوشة على لوحة معدنية ذات لون سكري، بأنني كنت أمام محلّ للخياطة، دخلت:

- أريد أن أفصِّل بدلة.

وضع الخياط أمامي درجات القماش، أعجبني ثلاثة أنواع من هذه الأقمشة فقلت:

- بكم البدلة من هذه؟

من النوع الأول، تكلف: أربعمائة ليرة ومن الثانية: أربعمائة وخمسون ليرة ومن الثالثة: بأربعمائة وتسعين ليرة.

فقلت:

- جميل...

خرجت إلى الرواق، علق في أعلى الباب الجانبي لوحة لطبيب أمراض عصبية دفعت الباب، استقبلتني سيدة ترتدي مريولاً أبيضاً وقالت:

- ألديكم موعداً مسبقاً؟

- بكم يكشف الطبيب على المريض؟

- بثلاثين ليرة.

فقلت: جميل...

خرجت من هناك، وفي الخارج، تفقدت النقود الموزعة في جيوبي من جديد وخرجت إلى الشارع، أُنيرت المصابيح، مشيت في الهواء الرطب، وصلت أمام الفندق الضخم، دخلت من الباب الدوار، كانت تلك أول مرة أدخل فيها إلى هذا الفندق، لقد أعجبني هواء الفندق المعتدل، غرق حذائي في وبر السجاد، ياله من مكان رحب، قلت لفتاة، واضحٌ من ثيابها أنها تعمل في هذا الفندق.

- من المسؤول في هذا الفندق؟ من أجل الإقامة هنا.

اقتادتني الفتاة إلى أحدهم، فهمت بأن هناك ثلاث درجات: خمسون ليرة، ثمانون، مئة وعشر ليرات...

فقلت:

- جميل...

عدت على أعقابي، وخرجت من الباب. كانت تسير أمامي إمرأة، أسرعت ومشيت إلى جانبها ثم نظرت إلى وجهها، يالها من إمرأة جميلة، ... إنها رائعة الجمال. وربما تكون أجنبية ... أوفنانة ... يالقدّها الرائع ... قد تكون عارضة أزياء ... تجاوزتها ثم تخلفت عنها...

لمست النقود الموزعة في جيوبي ... يوجد معي مئتين وسبعين ليرة. . ويوجد فراطة أيضاً، إجرة الشقة خمس مائة ليرة، مرّت المرأة من أمامي ... إن سيقانها

أجمل سيقان في العالم، خمس مائة ليرة في الشهر ... يوجدمعي مائتين وسبعين ليرة ... مامعنى هذا؟ إجرة اليوم الواحد ست عشر ليرة وستين قرشاً، جميل ... حذاء المرأة مربوط بالساق عند الرسغ، كعباهما دقيقان جداً، ... يوجد معي مئتان وسبعون ليرة، أي أنني أستطيع أن أستأجر تلك الشقة لمدة ستة عشر يوماً وساعتين، بما أملك من نقود أستطيع أن أبقى في تلك الشقة ستة عشر يوماً وساعتين. . جميل ...

خرجت المرأة إلى الشارع الرئيسي، اقتربتُ منها، نظرت إليها من الجهة اليمنى ... سحرتني ...

إذا ملأت بطني بوجبة الشاتوبريان التي سألت عنها في المطعم، لكلفني ذلك خمس عشرة ليرة ... أي أن وجبتي الغداء والعشاء ستكلفان ثلاثين ليرة ... يوجد مع المرأة شمسية ... قفازاتها صفراء ... وشعرها أيضاً أصفر. إذاً. . أستطيع أن أتناول الطعام في ذاك المطعم لمدة تسعة أيام، يوجد معي مائتين وسبعين ليرة. . وفراطة أيضاً ...

انعطفت المرأة إلى أحد الأزقة، اقتربت منها من جهة اليسار، أنفها صغير جداً ومرفوعٌ في الهواء ... تمشي أمامي ... أحياناً كنت أتجاوزها ... راجي أقام حفلة زفافه ... انفق خمسة آلاف ليرة ... كم هو نحيف خصر هذه المرأة، من التاسعة مساءً حتى الصباح بخمسة آلاف ليرة، المجموع إذاً عشر ساعات، ماذا لو أردت أن أقيم حفلة زفاف ... يوجد معي مئتان وسبعون ليرة.

بدأت المرأة بصعود المرتفع، فخذاها ... المطر يهطل، فتحت المرأة شمسيتها، وخرجنا إلى الشارع الرئيسي من جديد إذا كانت تكلفة حفلة الزفاف لمدة تسع ساعات خمسة آلاف ليرة ... بمائتين وسبعين ليرة ... ياسيدي؟! ... إذاً كل ساعة واحدة من الزفاف تكلف خمس مائة وخمساً وخمسين ليرة وستين قرشاً، وهذا يعني أنني أستطيع أن أقيم عرساً مدته ثلاثون دقيقة، جميل ... يوجد معي مئتان وسبعون ليرة. التفتت المرأة إلى الخلف، تباطأتْ، ثم تابعت سيرها، ودخلت إلى

الحديقة يحيك الخياط البدلة بأربعمئة ليرة، لاشيء، إنها رخيصة جداً، يالها من امرأة جميلة، قد تكون موظفة. ولكن لا ... يجب أن تكون فنانة.

أنا لاأستطيع أن أفصِّل الطقم كاملاً، ومع هذا فأنا بإستطاعتي أن أفصل معظمه، قد يبقى ناقصاً بعض الشيء، فقد يكون دون كميِّن وربما دون ظهر أيضاً، مئتان وسبعون ليرة، صعدت المرأة الدرج وخرجت من الحديقة صارت على طريق الترامواي. أو ف ف ف ... يالها من إمرأة ... يالصدرها ... يالصدرها ... إن لها صدراً جميلاً جداً ... انعطفت نحو الطريق الصاعد، إنه طريق مظلم ... وقفتْ ... لاشك أن الحذاء قد عصر رجليها ...

معاينة طبيب الأمراض العصبية ثلاثون ليرة، دارت المرأة إلى الوراء، ربما نسيت شيئاً ما. اتجهت نحو التمثال الذي في الساحة. أنا أيضاً أستطيع أن أخضع للمعاينة عند هذا الطبيب المختص تسع مرات على التمام والكمال. جميل ... لوكنت أملك مائتين وخمساً وخمسين ليرة، بدلاً من مائتين وسبعين ليرة لما استطعت أن أعرض نفسي للفحص أمام هذا الطبيب سوى ثماني مرات ونصف المرة. أما المعاينة الأخيرة فستبقى ناقصة.

... دخلت المرأة إلى الزقاق الكائن في الجهة اليمنى. الأن هذه المرأة. . . . لاشيء. . . . ياله من فندق ضخم، . . . دارت المرأة إلى الوراء، الليلة الواحدة في الفندق بخمسين ليرة. إنه مناسب جداً، أستطيع أن أقيم فيه خمس ليالٍ كاملة، ويبقى معي عشرين ليرة. لابل أكثر من خمس ليالٍ بقليل ... هذا الفائضُ سأعطيه للنادل، ولينم مكاني، خمس ليالٍ وعشر ساعات ... يوجد معي مائتان وسبعون ليرة ... إضافة إلى الفراطة ...

وقفت المرأة، رجعت إلى الوراء، لم تعد تمشي ... إنها واقفة، وأنا أيضاً وقفتُ، راحت المرأة تمشي متجهة نحوي. أتتْ. وقفت أمامي، إنها تنظرُ إليَّ ... قالت:

- إيه . . يا ... قل شيئاً.

لاأعرف ماذا سأقول، طبعاً بقيت صامتاً.

- هل ابتلعت لسانك؟

أقل من بدلة واحدة بقليل... يمكن أن أفحص نفسي ثماني مرات ونصف المرة...

صرخت المرأة"

- ولك... هيا قل شيئاً.

تفقدت نقودي الموزعة في جيوبي، أستطيع أن أقيم في الفندق لمدة خمس ليالٍ، بل خمس ليالٍ وعدة ساعات...

قالت المرأة:

- هل هذا الرجل أصم؟

زادت زخات المطر قوة، تصبح خيوط المطر، تحت ضوء المصابيح، أكثر وضوحاً، خرج كلب من الزاوية، تن تن تن... اقترب منا، ثم وقف بجانبنا. أصبحنا ثلاثة أشخاص.

قالت المرأة:

- أم هل هو مجنون؟.

بدأ الكلب يهز ذيله، أستطيع، أنا أيضاً، أن أقيم حفلة زفاف لمدة خمس وثلاثين دقيقة، أو أستعيض عن حفلة الزفاف بتناول طعام الغذاء والعشاء لمدة تسعة أيام، ويمكنني استئجار تلك الشقة الكائنة في البناية لمدة ستة عشر يوماً، ... ياروحي... أنا أفعل ماأشاء...

قالت المرأة:

- حسناً، ماسبب تعقّبك لي منذ ساعتين؟

زخات المطر أصبحت أكثر شدة، تفقدت نقودي من الخارج بلمسةٍ من يدي.

بصقت المرأة في وجهي:

- تفو و و و ه ...

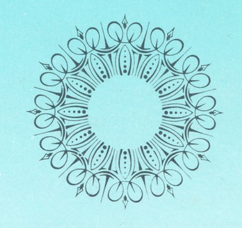
استدرات وذهبت. سار الكلب خلفها مسافة قصيرة. ثم وقف إلى جانب عمود الكهرباء ... ورفع إحدى قائمتيه الخلفيتين ...

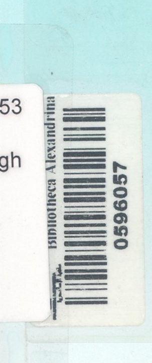
تفقدت جيوبي من الخارج بلمسة من يدي.

* * *

الفهـــرس

٣٠٠٠ ط١/١٢/١٩٩٩





الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر
١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٢٠٠ ل.س